حسن بنعقية

ابن السماوات

رواية

ترجمة محسن أخرو

ابن السماوات

حسن بنعقية

رواية

ترجمة محسن اخرو

ابن السماوات

لك أن تتخيل راعيًا وسط وحوش آدمية. كان يومًا ما موضوعا لتجربة القوة والشر، ووقع في شراك الجور. لنقل إن هذه القصة ليست حكاية، ولا قصة رمزية، هي بالأحرى قصة ولادة. يولد الطفل الأحدب وسط الألم، يعتاد على الظلم، ويجد نفسه أسيرًا لشرور تافهة. يُصبح يومُ البعث، بالنسبة له، بعيدا جدا. من أجل طحن القمح المتصدق به عليه، يجب على هذا الطفل أداء "فريضة الحج". الطريق طويل، وربما لا نهاية له، وفي الأخير لن يكون هناك خبز لهذه الأفواه الجائعة.

دعونا نكتفي بعبارة بسيطة: الطفل المذنب موجود، وها هي سلوكاته الجُرمية المُدينة له.

"استيقاظ أوغسطين"

(تخلي الأب عنه، وأحزان أمه)

مع أولى خيوط الفجر، استيقظ أوغسطين حائرا، شعر بأن يدا غير مرئية امتدت ثقيلة فوق كتفيه. عندما فتح عينيه، كانت عوارض السقف الخشبي تهتز اهتزازا طفيفا. خيل إليه أن خصلات من جذوع الأشجار كالغبار، تسقط مباشرة في عينه اليسرى. يجحظ طويلا، يظل يراقب الجذوع التي تشتعل فجأة، تهتز ثم تتوقف أخيرا عن الحركة والاشتعال.

من الداخل، ترى جدرانا مكسوة بروث سميك، ما يخفف قليلا من وطأة قر الجبل. كان الطفل يعاني صداعا شديدا، يشعر معه بتردد ضربات عالية تحت عمامته. أسنان غيبية تلوك أفكاره. كان صداعه رهيبًا، كأنها أيدٍ بمسامير حادة تهز جبهته بقوة. كم مرة استعاذ من الشيطان من مثل هذه الأحلام المرعبة التي تزوره آخر الليل! لقد كان كابوسًا طويلًا، شيئًا يصعب تمثله أو الحديث عنه.

لم تكن والدته، والتي تكفي أدنى حركة لإيقاظها، تحب سماع هذا النوع من "الجنون": هذه القصص القاسية يمكن أن تقتل طفلاً. صرخت فيه:

– أمنعك من رؤية هذه الأحلام! أنت أصغر من أن تتخيلها. اقرأ الكتاب المقدس قبل النوم! كلام الله سيريحك.

وأضافت إلى كلامها:

– يا للحسرة! يمكن للأحلام أن ترميك في قبضة التحولات. يغمر الشيطان الرؤوس بالرؤى لكي ينتصر عليها. لقد دمرت الأحلام أشد الرجال.

هز الطفل رأسه مطيعا. كان لا يزال يرى أشكالًا غريبة. كانت هناك أذرع وأرجل تهرب بعيدًا عن الجذوع الحية. لم يخَفْ عندما رأى ساقيه الصغيرتين ملتصقتين بذراعيه، بل كان يهرب أيضًا بعيدًا عن السترات المبهرة. لقد كانت بركة أرجوانية، وصوت اندفاعها يوحي بشيء شرير. غطت الأوشحة الرؤوس الطائرة. كانت أشجارًا ناطقة، وأفاعٍ مهادنة، وقصبًا يهتز. وراء النهر المضطرب، كانت الجثث تتحرك في كل الاتجاهات، بحرية أكبر، بفضل الجروح التي مزقتها. لا يسمع أي صوت، فقط صمت السماء المظلمة الذي لا يتوقف. للَحظةٍ، تراكمت في كومة من اللحم الملتهب، ثم بدأت تأخذ أشكالًا مستقيمة ومجوفة ومستديرة، ثم توالت سلسلة من التحولات الحية، ترتب عنها في خضم كل ذلك، ارتفاع جثة إلى السماء معلنة انفصالها عن الجذوع وحشد الجثث.

صاح في هذه الجثة صوت أجش:

ـ هذه هي الجثة التي أراها في السماء العليا. إنها لا تعيش إلا لتهرب من الآفاق وتهتك الأسرار. لديها نتوء كبير بين كتفيها، ونفس النظرة، ونفس الابتسامة، ونفس الشحوب الذي يغمر هذا العالم المحترق.

حدث كل شيء في المنبسط القاحل. تصاعد غبار خفيف مثل ستارة خفيفة طويلة فوق المشهد الطبيعي. كان الطفل بالكاد يستطيع تمييز الأشياء، ومن الصعب عليه إدراك كل شيء كطفل يبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا. كان الظلام لا يزال يمتد رقيقًا ومبهمًا. ردد في نفسه وهو مذعور ويبصق على صدره اللاهث أنه غير قادر على تحويل هذا الكابوس إلى حلم جميل.

حدثته نفسه مرة أخرى أن الأحلام لا قرار لها. كان هذا الحلم الثقيل بالجثث المذبوحة يتردد صداه دائمًا في منتصف الليل، فيقفز الطفل لاهثا لالتقاط أنفاسه. أحاط الظلام تمامًا بمنظره حيث كانت دوامات الرؤوس والأذرع تتحرك بسرعة. بدا الأمر وكأنه نبوءة. ماذا كان يفعل آحاديو القرن هناك؟ وهذه الغيلان؟ وتلك الوحوش؟ من أين أتت؟ من مكان سحيق؟ لقد طاردت حكايات الأم في الليل، حيث كان اليتيم يبحث عن هذه الأم، وعن الأخت، والأب...

ويبحث باستمرار عن نفسه. انهارت الأرض، تحت تأثير زوبعة لا نهاية لها، وصارت غبار أبنوس. كان أوغسطين خائفًا جدًا: كل شيء أصبح فهمه صعبا. كانت الأحلام هناك، مقيدة بنقطة بعيدة على قمة تداعب السماء المظلمة.

الخيال والخوف مترادفان، أخبره صوت مجهول أنهما توأمان. ما الذي يتبقى من السراب؟ أخت ثالثة. لن توجد أبدًا مهما اشتاق القلب إليها.

كان الباب مفتوحا على مصراعيه، وكان الظلام لا يزال مرخيا سدوله خارج البيت. كان أوغسطين يخشى الخروج ليلاً، لأن البيت الحجري يقع على وادٍ. كانت العقارب والأفاعي والثعالب والضباع وبنات آوى وقطاع الطرق والجنود، يزحفون في كل مكان خارج المنزل بهذه المنطقة. كانوا كأنهم هسهسة أو عواء أو حفيف. لجأت الماشية والرجال إلى منازلهم، فازددنا تيقظا: هذه الكائنات المتجولة تبحث عن بعض الفرائس. كان الطفل خائفًا بشكل خاص على "طيوره الداكنة" الثلاثة التي كان يحتفظ بها في قفص مصنوع من قصب جاف ومصفر.

في ركن من الغرفة الكبيرة المستطيلة، حيث كان البخور يحترق في مجمرة من الطين، كانت الأم، بشعرها الأحمر والطويل، جاثية لفترة طويلة أمام طاولة بها خبز جامد وإبريق شاي وكوب من الحليب. كانت هناك أفكار ترقد، ثقيلة، عميقة في ذلك الرأس، خلف تلك التجاعيد التي ارتفعت بشكل كثيف، والتي تراجعت واصطفت بعمق على طول الوجه الشاحب. قالت إنها تتألم في كل مكان، واعترفت أن قبضة الشيطان لن تحررها بعد الآن. كان جسدها يحمل جروحًا غير مرئية، وآلامًا يصعب التئامها. لقد عانت كثيرًا، لكنها عرفت كيف تريح نفسها، فقد أعدت مشروبات مريرة من عشبة نبتة الكلب، وساعدها ذلك في التخفيف للحظات من هذا القلق الشديد.

لم تكن لمُونِيك صديقة قط. ففي القرية، عند النبع، حيث تغسل النساء الثياب، كانت كلما اقتربت منها امرأة فضولية، تخشى سوء نيتها.

ـ لمن هذا الطفل المسكين؟ تقولها وهي تشير إلى ولدها المعاق وهو يقفز فوق برك الماء.

ـ إنه ابن السماء. تريدين شيئا آخر؟

سرعان ما يختفي فضول المرأة أمام نظرة جليدية، لتكف عن التحديق في الخرق المبللة في الوحل.

كان أوغسطين يحب عادة الاختباء في الأحراش، حيث يراقب أمه وهي تندفع إلى الفناء فترش الأرض المغبرة وتكنسها. تشعل النار، وتعجن الخبز الأسود. لم تكن تغلق الباب من الخارج أبدا، لكي تراقب المعاق، وتشرف على سلامة جباحها الطنانة تحت أشجار اللوز. لقد كانت تدعي معرفة نحلاتها واحدة واحدة. تجري في الكثير من الأحيان إلى الحقل لتتحقق من أن بقرتها ترعى في مكان جيد. أما اللصوص، فلم تكن تخاف منهم، لم يكن لديها ما يسرقونه. لقد استضافت كثيرا من ضيوف الليل في المنزل، والذين يفتشون في الجبال بحثًا عن أعداء غرباء، هؤلاء الذين كانوا يأتون في جماعات متسكعة، يدعون أنهم ينشرون النظام والعدالة. كانوا يتكلمون لغة رصينة، ويرتدُون سترات أرجوانية ويرمقون الجميع بنظرات حادة، ما يجعل الفلاحين يبالغون معهم في الحفاوة والإكرام.

لأول مرة، وتحت تأثير النوم والضوء الخفيف القادم إلى الغرفة الكبيرة، لاحظ أوغسطين أن والدته قد تقدمت كثيرا في السن. كان شعرها خفيفا ووجهها هزيلا، ولم تعد ترتدي وشاحها الأسود القديم. لقد عانت لفترة طويلة من أمراض غريبة بسبب بقائها في حالة انتظار لعودة زوجها: هذا الرجل لم يحب حتى ابنه. لقد عرفت طبيعة خطيئتها، أعطته طفلاً غير مكتمل، وهذا ما لن يغفره الرجل أبدا.

التباس تافه يمكن أن يدمر إنسانا. بكت مونيك بين ذراعيه وتوسلت إليه عندما أخبرها يوسف لأول مرة، أنه لا يستطيع البقاء على هذه الأرض المتحجرة. لكن الحقيقة هي أنه عانى بشدة بسبب رذيلته اللعينة: لعب الورق. يجب على الإنسان، بل وعلى كل رجل يشعر ويفكر، أن يجيب على الكثير من الأسئلة. لكن بالنسبة ليوسف، لم يكن هناك سوى سؤال واحد غير قابل للحل: "لماذا تهيمن هذه الأسئلة على عقلي؟ هذا الاهتمام بتكهن الغيب يفوق بكثير الاهتمامات الأخرى التي لا تزال تتراكم مثل ألعاب الورق.

لم تره المرأة الطيبة مرة أخرى منذ هذه الحادثة التي لا تنسى. في بعض الأحيان، كانت مونيك تقول لنفسها إن تلك الليالي التي قضتها معه هي كل ما تملكه مما يستحق أن تتصفحه وتحتفظ به في أعماق جسدها الأنثوي. لم تكن لياليهما نارية، كانت كزوجة تستمتع بالاستماع إلى ثرثرة يوسف حول البطاقات التي يمكن أن تحدد مصائر أي كائن، حتى مصير النملة التي تقوم بمهامها اليومية. لم تمارس الحب قط مع أي رجل آخر من هؤلاء الفلاحين، صغارًا كانوا أم كبارًا. فقد تفوح منهم رائحة الروث مثل الثيران. وهم، بدورهم، لم يضطروا حتى إلى التفكير في الأمر، لقد رأوها كقطعة قماش، كجسد لا قيمة له.

لا التمائم ولا الزعرور ولا أطراف آذان الحمير يمكنها تدجين هذا الزوج المتقلب، الذي لا يعرف سوى القليل عن مكانته كأب وزوج وحامٍ. كان يهرب، يومًا بعد يوم، قدر الإمكان، من كل ما يربطه بالواجبات. في البداية، فشل في جعل قربان لابنه، لم يقدمه منذ الأيام الأولى. وقال الناس إن هذا هو سبب ظهور النتوء الذي يبشر بالغضب الإلهي.

كان حب يوسف، بالنسبة لمونيك، عظيمًا جدًا، شاهدا مثل أي علامة أخرى على ضعف الروح والجسد. لكن تدفق المشاعر الذي نشأ كان لطيفًا بما يكفي للتشكيك في الحياة القاسية في الجبال. هذه الحرارة التي غزت بطنها، وهذا البرق الذي ولد في جسدها، هذه الرغبات التي استحوذت عليها، هذه الركلات التي ولدت، هذه الخدوش التي كانت هناك، كان كل هذا حب طفل سيأتي إلى داخلها.

باركت مونيك هذه اللحظة. وكان لإرادة الله علاقة بالأمر. وفي أحيان أخرى، بعد صلواتها العرضية، قالت لنفسها إن كل هذه الذكريات كانت ثمرة الخطيئة التي كانت تطاردها. لهذا لعنت مناورات الشيطان. لا بد أنها كانت بالكاد تتذكر هذا الرجل ممتلئ الجسم، الذي عاد في وقت متأخر من إحدى الأمسيات إلى المنزل ليمزق السجاد الذي كانت تنام عليه المرأة والطفل، ويأخذهما إلى مكان آخر ليقامر بهما. لقد فقد كل شيء في تلك الليلة: المال والأثاث البائس. لم يجلب له لعب القمار سوى الهزيمة. ثم أقسم أن يترك كل شيء. كان عليه أن يأخذ هذا الحظ السيئ معه، في مكان آخر، بعيدًا عن ابنه المقعد وزوجته الطاهرة.

كان ذلك عندما قام بلعب بطاقة سيئة، نشأ القرار الصعب بترك كل شيء في ذهنه، وابتسم اللاعبون الآخرون: لقد خسر للتو كل شيء، ولم يعد لديه جنة ليضع قدمه فيها.

عند الفجر، عاد يوسف، محملا بهزائمه في القمار، يصرخ كالمجنون بينما كان يحمل مشعلا في يده:

ـ أخرجوا من هنا! أخرجوا !

أشعل اللاعب النار في المقصورة بعين تتقد غضبا، والتهمت النيرانُ الألواح القديمة والأشجار الموجودة في الفناء وطين الأسطح. حتى إنهم امتصوا الماء من البئر. كانت مونيك هناك في الخارج، راكعة، مذهولة، رافعة ذراعيها إلى السماء المظلمة، غير قادرة على تصديق عينيها: لقد فقد زوجها عقله. حملت على ظهرها النسل المسكين الذي كان يبكي من الجوع أكثر من الرعب الذي بثته هذه النيران.

ولما التهمت ألسنة اللهب أثاث المنزل بالكامل، نظر يوسف إليه للمرة الأخيرة قبل أن يسلك الطريق الجبلي الوعر، وخطواته تعرج. في طريقه الطويل، استمر في المشي وقد علا صوته بالنحيب:

– مونيك، ما أزال أراك قريبة مني، في كل مرة أخطو فيها إلى الأمام. أنا أهرب منك، لقد خنتني.

وردد صدى الأعالي: «خنتني» واتجه صوب الصحراء، في طريق لا نهاية لها.

وعاد يوسف يتابع حديثه:

ـ أنا أبتعد عن الشيطان. ورقاته ستعيد تنظيم هذا العالم. إذا كانت هناك ورقات صالحة وأخرى طالحة، سيعطيني الله الصالحة بالتأكيد! وإلا فلن أتوجه إليه بالدعاء بعد الآن. أتمنى أن يقدم لي الأفضل لأجل التغلب على الشر الذي يثقل رغبتي في الحياة، ويدمرني إلى الأبد. ليمت الشيطان الذي لا يتوقف أبدًا عن النظر إلي، الذي يغويني، الذي يداعبني، الذي

يبتسم لي، والذي يهمس لي بأشياء جميلة. ليمِته الذي خلق كل شيء. أنا لا شيء أمامهما. ليحررني من هذه اليد الساحرة التي لا تكل من ضربي.

انتظرت الأرملة المسكينة عودته لمدة ثلاثة أيام في خيمة قديمة، ثم رُجّح لديها أن عفريتا قد اختطفه. قيل لها إنه إذا لم يعد بعد أربعين يوما فيجب ان يُنسى وينسى وجوده في هذا العالم.

لم يعد للرجل ولا لإسمه ذكر، ولم يره أحد في الجوار مرة أخرى. إنهم يطلقون عليه منذئذ اسم أوشن (ابن آوى): لقد اختفى مثل وحش لا يرحم، تاركًا خلفه صرخات الشدة. بهذه الأسماء المستعارة، نولد من جديد بطريقة أو بأخرى. كم هو قاس أن تحمل اسما واحدا مدى الحياة. كرهت أمي هذا الاسم، لم تعد تحتمل النطق به، وما زالت ترتجف عند سماع اللقب. اختفى الرجل هكذا، مثل ابن آوى، وفي النظرة الطفولية التي كانت تبحث عن أب، لم تجد مونيك من كلمات مناسبة، إلا من يدها التي صفعت بها الابن وصرخت في وجهه بعين محترقة:

- لا تعد لهذا السؤال مرة أخرى! أنا والدتك، أنا والدك. أنا كل ذلك. حتى الرب الصالح أبى ألا تكون إلا مُقعدًا في هذا العالم!

وتحت تأثير ثقلٍ يعيق تنفسها همست وهي تكفكف دموعها: لو كرهتَ أباك، ستكون قاتلاً.

حين يلح الطفل في معرفة الأسباب التي جعلت الناس ينادونه: "ولد ابن آوى"، تنتفض مونيك وتركض خلفه، يهرب الصغير بعيدًا عن غضب الأم. كانت دائمًا لا تتوانى في تأديبه عندما يتعلق الأمر بأصوله. لم تحمله بين ذراعيها قط؛ مرة واحدة فقط، داعبت شعره وهي تقول: ليس لدينا شيء يا بني! لا يمكننا إلا العيش في هذه الدنيا. أنت الابن الذي ضحت به السماوات.

ولم تكن الأقدار رحيمة. آه، كانت ظروفا قاسية. وتتابع سيل المحن: بعد أسبوع من رحيل يوسف، اندلعت الحرب في الجبال. سقطت قذائف من السماء، وسوت الأنقاض بالأرض، مما أدى إلى تدمير أنقاض الحياة بالفعل. تاهت الحيوانات أيضًا، رغم أنها على الأقل كانت

تعرف الاتجاه الذي يجب أن تسلكه. بسرعة سار الناس في إثرها مبتعدين عن الصخب الذي غطى كل شيء. كان هناك الكثير من النساء والأطفال ملقىً في الطرقات. كان الطريق للنجاة مقلبا: إنه يؤدى إلى تلال أخرى كانت تنفجر وتتحول إلى ركام. لقد أصبح المكان كله جحيما لا حد له.

بقيت الطائرات ترعد وهي ترسل ظلالها مصحوبة بنيران رهيبة ذات لهب يلتهم كل شيء. وعندما انتهى ضجيج المراوح، استمر الصراخ والانفجارات في توقيع هول الموت في كل مكان. لم يفكر أحد في دفن الجثث، كان الناس ما زالوا يفرون بعيدًا.

ولمواصلة العيش، سلكت المرأة المطلقة الطريق أيضًا، حاملة صغيرها على كتفها. غادرت تاغست محروقة، والتي كانت خضراء ذات يوم، ترويها مياه النهر الكبير، لتجد نفسها في نوميديا، ذلك البلد البائس حيث مزقت الأيدي المنتقمة الحب الصغير الذي كان يسود هناك، وحيث كانت الألسنة الساخطة تردد نفس الأغنية عن الرغبة في امتلاك كل شيء في بلد جاف ومتضرر، وحيث كان أسلافه الحالمين والمتقشفين، ولكن ليس الأشرار، يحلمون بعالم أفضل، ويغادرون البلاد لموسم أو موسمين.

جاءت مونيك إلى منزل أسلافها المدمر. على الأقل ستجد فيه ملجأ لا بأس به. هناك قطعة من الأرض ستعتني بها. جاءت إلى هنا لتنسى متاعبها، فأكثرت الحرث والزرع والحفر والتقليم والسماد. أخبرها الناس عن فرحتهم برؤيتها حية وبصحة جيدة، لكنهم نقلوا قصتها من فم إلى آخر لتحتفظ الذاكرة بها إلى الأبد. لم يمتدح أحد شجاعتها: فقد أعادت هذه المرأة الطيبة الحياة إلى منزل أسرتها، وحرثت الأرض التي تركها أعمامها للتهريب، والأبناء للتجارة، والأحفاد للهجرة.

وكانت المطلقة عارا تقاذفته كل الأفواه: هذه المرأة الفاسقة لديها طفل! لقد أعطاها الله إياه على صورة إثمها! من سيكون والد مثل هذا الطفل الغريب؟

عرف النوميديون كيف يجمعون الحقائق ويشرحونها ويعلقون عليها فقط. تم تخيل مونيك كامرأة من الشوارع الآثمة. لقد طردها والداها. ولم يكن لها قط زوج دائم قادر على تكوين

أسرة؛ ولم تتعب أبدًا من سرقة الأزواج من الزوجات الصادقات. وعن هذه الفاحشة، تقول نساء نوميديا، سينصب الغضب الإلهي على جبالنا! وهذا الأحدب نذير له من السماء.

انتشرت الإشاعة سريعا على كل لسان. لا يتعب الناس أبدًا من التشهير بمونيك وربط قصتها بالجفاف الذي أصاب الجبال. كيف يمكن أن تسقط قطرات مباركة على بلاد سدوم وعمورة؟! تقول نساء نوميديا. لا يمكن للأرض إلا أن تكون قاحلة للغاية. لم تعد السماء تمطر. نادرًا ما يشق النهر العظيم مسارًا صغيرًا، لا يؤدي إلا إلى تشقق السرير النهري. لا شيء ينمو على الضفاف سوى نباتات شوكية.

أراد أوغسطين أن يقول للبالغين العدوانيين أنه ابن شرعي، وأن والدته بريئة، ولكن من سيستمع إلى هذا الطفل؟ وكثيراً ما كان يقول لنفسه: كيف يمكن لأمه أن تحب مثل هذه الأرض القاسية؟ هذا القفر لا يقدم شيئا. واحدا تلو الآخر، وفي سرية تامة، انطلق شباب نوميديا بعيدًا عن هذه الواحة الخالية.

– من الممكن فعلا أن تكون هذه خطيئتي. قالت الأم بحزن عندما جلست وحدها في الحديقة التي دمرها الجفاف.

حينما تتحدث مونيك، تسعل، وحينما تريد أن تنام، تربط وشاحًا غير منتظم حول رأسها، ولكي تتغذى تمضغ أكلها بعيدًا عن أعين الآخرين، ولكي تعيش تختار عزلة لنفسها. قليلا ما تشرع في الكلام، منتظرة في ذلك سماع ما هو حسن عند الآخرين في أقوالهم. كانت لا تؤمن بأي شيء. حاولت تجاهل ما يحيط بها والتحدث عنه بأقل قدر ممكن. ولم يأت أحد ليطرق بابها. كانت تختبئ إذا اقترب رجل من حديقتها الصغيرة. وقيل عنها إن هذه الغول تكره الجيران. كان قلبها قاسيًا مثل صخور النهر الملساء، وكانت قوية أكثر من البقرة، وفوق كل شيء بخيلة في المشاعر.

كانت أكثر خبرة من أي من سكان الجبال في صيانة البساتين الضئيلة والأراضي القاحلة، وأرادت أن تمنح الحياة للأجزاء التي تم إعلانها مواتا. أصبح ابنها راعيًا متضورا، خلف قطيع ابن عمه داود، ذلك الرجل الغني الوقح، لكنه على الأقل الذي كان يؤمن له الخبز

والزيتون في بيته. يقال إن هذا السبعيني يتمتع بقدر كبير من الرأفة والحكمة. كان يضرب زوجته الأولى، بنديكت، بلا رحمة. كان يخلع ملابسه بالكامل لتجنب مجيء الجيران لمساعدة الضحية، حتى يمارس فعله بتلذذ. لقد أتقن فن تأديب الزوجات جيدًا. كانت أمه العجوز وحدها التي تأتي مسرعة وعيناها مغمضتان، وفي يديها وشاح طويل لتغطي ابنها الذي سبق لها أن رأته عاريًا خلال ولادته. لقد أصبح تحرير المرأة المسكينة من مخالب الوحش يكاد يكون معجزة.

هذا المشهد، المتكرر دوما عند الفجر، في غرفة داود، يجعل الطفل أوغستين يضحك كثيرًا عندما يتذكره بمفرده بصحبة ماشيته. لقد رأى بعينيه مدى احترام الأغنام لبعضها البعض أكثر من البشر. في المساء، عندما يروي الطفل المشهد المسلي لوالدته، تتوسل إليه أن يلتزم الصمت، دون أن تنسى نعت ابن عمه داود بالأحمق، هذا الذي كان عطوفا عليه، فبعد حبس ابنه الأكبر، كان يائسا من امتلاك ذرية صالحة.

في ذلك الصباح، لم يتوقع أوغسطين أن يستيقظ قبل والدته: كانت هناك، جسدا متعبا، جالسة، تعاني من سوء المعاملة بسبب العذاب الخفي الذي جعلها تنتقل من ركن لآخر. كانت أشياء كثيرة تدور في رأسها بصوت عالٍ. وكان عليها أن تفكر في الأوقات الصعبة.

لم تبتسم عند رؤية الابن. أومأت برأسها لفترة طويلة لدعوته لتناول الطعام. زحف أوغسطين بالقرب منها على السجادة الخشنة، وجلس على الطاولة فالتهم الخبز والحليب في أقل من دقيقة. نهضت الأم دون أن تنطق بكلمة، واختفت خلف الباب بحثاً عن كيس قمح.

في الفناء، بدون حبل أو طوق، جعل بيسي خيشومه في جرة مكسورة، ولف ذيله على شكل كعكة، فهو يحب الشعور بالنسيم يتدفق رويدا على فرائه.

سفر أوغسطين إلى تاغاست من أجل طحن الحبوب

عند بزوغ الفجر، لما كانت النجوم تنفذ من بين ظلام الغيوم، ولد أوغسطين. بدون صرخة الحياة الأولى، هبط مباشرة على طنفس رمادي مصنوع من جلد الخراف، ولم يكن هناك ضوء في المقصورة. صرخة مونيك القوية والمحررة هي فقط من أعلنت عن الميلاد. قُطع الحبل السري بيد الأم ولم يكن النزيف غزيرًا بما يكفي لوجود أدنى بقعة دم على الفراش.

إذا كان الطفل قوي البنية منذ ولادته، غالبا ما تقول الأم ذلك، يمكنه أن يتحدى كل شيء. كانت وسيلتها لتذكيره بواجباته كذكر، ولتنسيه ضعفه. حينما يكبر، يمكنه مجابهة العالم بحكمة في كل مرة تقتضي منه أن يكون شجاعا.

أن تكون متميزا، هو أن تتعلم أيضا تقدير الأسلاف. لكن من ذا الذي يولي أهمية لذويه في زمننا هذا؟ أنت ضعيف، تعلم كيف تحترم قريبك أكثر من أي شخص آخر، وإلى درجة الجنون، الشخص الذي يكرهك. يرى الناس أنفسهم أقوياء أمامك. لكن، عندما ستكون لديك سيرة جيدة، فسيكون العالم كله لك. كن بارا حتى تُنسى عيوبك!

من دون وجود يوسف لإطعامه، ولا لتعليمه الكفاح في الحياة والدفاع عن نفسه، تعلم الطفل احترام الناس بسرعة. كان هذا الاحترام قبل كل شيء، نوعًا من الخوف الذكي على ابنها الذي كان يشعر بتخلي أبيه عنه. وكانت الأم تردف قائلة:

- تعلَّم كيف تحدث الناس بلباقة! ألق التحية كما يجب! احذر أنْ تؤذي أحدا! إياك أن تظن أبدا أنك أفضلهم! لا تعش كما لو كنت الأوحد على هذه الأرض: هناك الكثير من الأشخاص الذين يحيطون بك في وحدتك ويراقبونك.

كان الأحدب الصغير يومئ برأسه مؤكدًا وهو يستمع إلى بعض هذه النصائح، وكان يعلم أن والدته تتعمد دائمًا أن تنتقد من خلاله، شخصية الأب الهارب.

"في تاغاست، لا تتجول بعيدًا. اطحَنِ القمح، ادفعْ ثمنه وعُد إلى المنزل قبل غروب الشمس. بيسي سيرافقك، واحرِص على عبور النهر الغادر معه !"

كلما ازداد الطفل وعيا بفقره، ازداد جسده نحافة. في خلواته، ينتحب كثيرا ويلعن قدره؛ لم تكن نصائح أمه ذات أثر واضح. كان كل من حوله يزدريه ويلحق به الأذى لقصره، رغم أنه كان لطيفا ومحترما.

كان بيسي العجوز يسير خلفه، لم يكن أوغستين يخاف من اقتحام الطرق الخالية. كان يحمل على ظهره كيسا كُتب عليه بأحرف كبيرة: "هدية أمريكا". فوق الأكمة، بدت منازل حجرية صغيرة وأخرى متناثرة، لا تزال محاطة بصفوف متراصة بنبات الصبار، تحتضنها بإحكام كما لو كانت جسدا واحدا بسحنة غامضة وأطراف مترامية.

على الطريق الصخري، سرعان ما كلّت عينا الفتى من تقليبهما بين الصخور والأشجار، يعدّها تارة ويحاول التمييز بينها تارة أخرى. شيء مما لم يستطع أن يتبينه يملأ الأفق كأنه حريق شب في إحدى المنازل وصير الدور والأشجار إلى رماد. في الطرقات، تنتشر أكوام من الصخور السوداء. على ضفاف الأنهار، يتبين الصمت من الأصوات. أصوات تصل إلى مسامعه كأنها عويل الرياح.

أحداث كثيرة دارت بمخيلة الطفل بحثا عن تفسير لما يشغل باله. عندما كان يتجول في أحراش أسامر، لم يكن يعبأ كثيرا بالحفاظ على المسار المؤدي للمنزل. كان يحب أن يتحدث إلى النباتات، أن يرسم بأصابعه في الهواء. جسديا، لم يكن يحس بأية إعاقة: كان يستطيع أن يسابق بيسي. كانت نفسه تحدثه أن حدبته تناسبه تماما كبعض أطراف جسده.

ولأنه راعٍ متمرس، كان يود دائما لو يصادف ابن آوى في إحدى خرجاته. يروي الناس الكثير من الأساطير في شأنه. لم يره مطلقا عن كثب. يقال له أن هذا الحيوان يأتي عند الفجر فقط ولا يكِلّ في رصد الخِممة التي لم تغلق جيدا ومراقبة القطعان التي تسرح دون حام أو رقيب، لكنه يكتفي في نهاية الأمر بأكل الجيف. لم يكن يستوعب فكرة حقد القرويين على هذا الحيوان وإدراجه في صف الشياطين. بالنسبة له، لن يحمل مقلاعا حتى لو رآه

قادما نحوه، فيوما ما، لن يكون هناك ابن آوى. سيحل الإنسان محله. لقد جعله هذا الحب لهذا المخلوق، على قول بعض الرفقاء، ينال بشرفٍ لقب 'ابن آوى ".

كان الوصول إلى قرية تاغاست، في غضون ساعتين، شاقا جدا، ومثلها العودة إلى مسكنه قبل انقضاء النهار. كان سيره بطيئا، نظرا لثقل كيس القمح الذي يحمله على ظهره. لقد رفض الجيران أن يعيروه دابة يحمل عليها الغلة من الحقل، فكيف سيسأل عن مركوب حتى مطحنة تاغاست. على عتبات منازل البدو الأجلاف، توجد دائما عصا غليظة جاهزة ومهددة. يكفي أن يرفض أحدهم طلبا حتى يتبعه الثاني وتختلق البقية الكثير من القصص والأعذار التبرير الرفض. وماذا عن موح؟ موح كان أثراهم لأنه لا يمد يد العون لأحد. كان على النقيض من ذلك يسعى لاستغلال الآخرين: لا يعطي مالا لمزارعيه أو رعاته إلا لماما. استعارة دابة منه! هذا ما لا يحسن التفكير به. على مشارف دار إمجيار، سمع أوغسطين نفس الأسطوانة، لقد اعتذر داود الأكبر بأن الدابة ليست في المنزل، ليسمع بعدها نهيقا يعري ادعاء صاحبها.

قال أوغسطين:

غدا لن آتي للرعي، سأذهب لطحن القمح.

- تقصد طحن ما تصدقت به عليك؟ حسنا، اذهب يا بني. رد داود الأكبر بسخرية.

لقد تكسر مدقهم اليدوي المصنوع من الحجارة، ولم تكن مونيك لتطلبه من الجيران، مثله مثل الدابة. لقد ملت من طلب الأشياء. في كل مرة يأتيها نفس الاعتذار الذي لا يدع مجالا آخر للطلب. لقد آلت على نفسها أن تقطع الطريق أمام كل فرصة تسمح لهم بالانتقام منها، برفض طلباتها.

لم يكن الغلام يستسيغ حقد الجيران على أمه ونعتهم إياها بالغيلة. العديد من عاداتهم تظل عصية عن الفهم. كان يردد دائما: الناس أكثر استعدادا للتباغض منه للتآلف". هذه الناحية من الأرض لا تعرف الحب، أو حتى أبسط مشاعر الود والألفة.

في نوميديا، كان الناس دوما مستعدين للتناحر حتى الموت. لم يكن يغذي قلوبهم سوى السخرية والحقد. لقد خلت نوميديا تماما من أي ذرة من الشفقة التي لم تعد مونيك بحاجة إليها. حسبها أنها تعرف جيدا ما الذي يتوجب عليها فعله. كلما دنا موسم الحرث، ترى مونيك لا تنفك تقضم أظافرها، فحرث الأرض كان كابوسا. إن الاستعانة بالقطط أهون عندها من الاستعانة بمن يجاورها من الكلاب. كانت تعض شفتيها حد النزيف وهي تراقب فتاها يغرز المحراث الصغير في الأرض، تطارد طيبتها ظلال الغياب اللعين لزوجها الهارب.

جعلت مونيك كل القمح في كيس كبير وهي تحرص أن تودعه كل ما تصدق به داود الأكبر. كانت لا تكل من إعادة نصائحها على مسامع ابنها: إن اللصوص منتشرون في كل الطرقات. من الطريق الممتدة من التلة الكبيرة حتى تاغاست، تتسكع طائفة من النشالين والحمقى. منهم من هو أشد سوادا من الفحم، بوجوه تعلوها القذارة وليس عليهم سوى خرق وأسمال ممزقة. ومنهم من يرتدي ملابس لكن على نحو عجيب، يجوبون الطرقات مطلقين صيحات مدوية تهز تلك الظلال التي سئموا منها، تلوح من شفاههم الملوثة بالدماء علامات الوحشية والقسوة. ومنهم طائفة أخيرة، أولئك الذين يتحدثون إلى أطياف خفية، إلى كائنات خيالية، أولئك الذين يسترسلون في الحديث ليقولوا كم هم مشمئزون من هذا العالم. كلهم كانوا بنات آوى في نظر الطفل. لا يحسن أبدا إعطاء الظهر لابن آوى.

منحته الأم بعض النقود ثمنا لطحن القمح عند الشريف إسماعيل، صاحب الرحى الوحيد في تاغاست. الشريف عادة، هو شخص ينحدر من أصول مقدسة، يتقن الحديث، لا يكذب أبدا ويفي بوعوده على الدوام. كان بارعا في فن طحن الحبوب ودقها، متبعا في ذلك المهارة التي ورثها عن أسلافه.

تلك القطعة من الأرض التي ورثوها عن الجد لم تعد تغني شيئا، بسبب موسم انعدمت فيه التساقطات. وتحت وطأة عيون الأعمام الراصدة، الذين يعيشون فرهين في هيبون في التجارة والتهريب، ظلت مونيك تستغل الأرض القاحلة التي لا تجود بشيء. كم هي متعلقة بهذه الأرض الطينية التي يطول فيها سبات الحب قبل الظهور على الأديم، باهتة وشاحبة.

في الأرياف، الشتاء يطمر والصيف يفني، أما الربيع فيأتي حاملا كل أنواع الخيبة لتلك النفوس التي تنتظر صنوف الكنوز والثروات، لكنها لا تظفر بشيء. أما بالنسبة للبقرة فهي دابة معتدة بنفسها، قد تذهب مونيك كل مذهب بحثا عن نباتات وحشائش لها: حليبها الطازج هو كل ما يمكن تحقيق الشبع به في هذا القطر. كانت الأم تمتلك، بالإضافة إلى العجلة ذات القرون، أرانب ودجاجات. لقد كانت تهلك نفسها لإطعامها لأن هذه الأنعام مصدر عيشها.

قرر داود أن يؤدي ما عليه، بحكمة المؤمن الصالح، فأعطى زكاته للأرملة. لم يكن يريد بذلك تكفيرا عن خطاياه، ولكن ببساطة عن خطايا الزوجة الأولى التي كانت تكره مونيك رغم أنهما كانتا صديقتين في الطفولة. صاح بها:

- يا امرأة، إذا تصدقت، فأخفي حتى لا تعلم شمالك ما أنفقت يمينك. هذه هي الصدقة المقبولة!

رأى أوغستين، الذي يكون عادة حاضرا في مثل هذه المشاهد أنها سرقة أكثر مما هي صدقة. كانت فرحته كبيرة عندما وضع الكيس على ظهره وسلك طريق المنزل.

في الطريق، رأى أو تراءت له وحده، الطبيعة تبتسم له وتدعوه إلى المشي أو الجري أو الجلوس تحت ظل شجرة. كل شيء يدعوه إلى التحرك بسرعة على هذا الطريق الترابي: حذاؤه الممزق القذر، يحدث صريرا بما تجمع داخله من الحصى والرطوبة. أما أصابع القدم فقد تجمدت تمامًا ببرد الصباح.

اكتشف أمامه هناك أن النهر ظل هادئًا، حيث كان يحمل في السابق عندما يتحول إلى سيل عنيف، جذوعًا وقطعانًا ورجالًا في مساره، مدمرًا وقاتلًا كل شيء. إنه بلونه الطيني، يأبى أن يهب شيئًا للبؤساء: إما أنه يدمر مزارعهم أو يحبس أنفاسهم عطشا. لكنه إذا كان يضطهد جيوشًا من الناس القساة، فإنه يروي عطش الوحوش والأراضي. لقد سعى باستمرار إلى أن يجعل الفلاحين متأرجحين بين الوهم واليأس كأنه بذلك يعرض بمدى ضعفهم وهشاشتهم. كما لو كان نوعا من الانتقام الذي يكمن في قلب هذه المياه المضطربة منذ زمن. إن الحياة لا تطاق حين يخلو الوادي من الماء.

هناك، على خطى هذه المياه الجافة، كان الطفل يحب البحث عن الحصى التي تكثر في قاع النهر الفارغ. كان يبحث عن المجهول: سيفعل أي شيء ليرى الماء، قيل له إن المياه القرمزية كانت لانهائية، وأن اللف يطارد الماء الذي كان قليلا، وامتد لحمًا شهوانيًا، ومد أذرعه الألف للناس، ودعا الكون للدخول إليه، أربع مرات في اليوم.

على الرغم من الجفاف الذي استمر لأكثر من ثلاثة مواسم، كان النهر يمتلئ بالذباب والبعوض والثعابين والضفادع والعلقات التي كانت تطارد الحياة في ظلال الثقوب العميقة. في فصل الشتاء، كانت البتراوت، أول من يبث الحياة في المكان، تنقنق باستمرار، تستمتع بالمياه الشفافة؛ كانت تعلم جيدًا أنه في يوم من الأيام لن يكون بالمياه ما يستحق الحياة. ربما كان الأمر يستحق أن تكون سعيدًا، متهورًا بشأن الأيام الجافة القادمة. ولكن الناس لم يفهموا هذه الحكمة. لقد سئموا من حفر الخنادق المعقمة وحتى الآبار غير المجدية التي بالكاد تبلل بضع طبقات من الأرض السوداء.

قبل ذلك، عندما بدأ المطر ينفجر على صوت السحب الكثيفة والمظلمة في السماء، كان الفلاحون قد قاموا بالفعل بإيواء الماشية، ولجؤوا إلى منازلهم. سحبت مونيك البقرة إلى الغرفة الكبيرة حيث أعدت لها مهدًا من القش لتمضي أكثر من شهر هناك. استقبلت الأيام الممطرة بالصلاة والتسبيح؛ أحيت هذه التساقطات النفوس التي حلمت باسترداد الحياة الطيبة في الريف.

بدا وكأن القطرات تنبعث من الأرض، كان كل شيء يغلي بالطين والماء. في كل مكان، تدفقت السيول، حتى في أكثر الأراضي جدبا. كان هناك شاب يسمى جوبا وكان يحلم ببناء زورق عملاق وإعداده قبل موسم السيول. هناك، عندما كانت الأمطار تشوه المناظر الطبيعية، كان يأخذ فقط أولئك الذين يحبهم، ولم يكونوا، ويا للعجب، كثر! كان سيأخذهم بعيدًا، إلى أرضٍ أخرى لن تنضب فيها المياه الصالحة للشرب أبدًا. من هم المختارون؟ النباتات، ثم الحيوانات، ثم كبار السن ولا شيء غير ذلك.

- لا أزواج. قال هذا متذمرا على الجميع رغم لومهم إياه:

- هذا ليس عدلاً يا جوبا! لا يمكنك تركنا هنا للموت. ولماذا تترك الأطفال؟

لم يقل جوبا شيئًا، فقط أطلق بصاقًا ثقيلًا.

كان الطريق طويلًا بالنسبة لأوغستين، وبدأت الخطوات تزداد أثقل وأثقل.

- وأبي... همس بحزن، أين ذهب؟ ألن أجده ذات يوم؟

بعد العطس الحاد، سكت الطفل؛ الكلمات تتدافع في فمه. كان حلقه منقبضا، مؤلمًا. أغلق عينيه. إذا كان هناك، إذا كان هناك... هذا الأب، بعيد ومجهول الاسم، رفع نفسه أمامه فجأة، بجسد ضخم ونظرة ثاقبة. كره أوغسطين لقاء نظرة الأب؛ كانت لديه لامبالاة تامة تجاهه. لم يكن بحاجة إلى سيد. كان يفكر أحيانًا في أن يرسمه بأصابعه فيما يشبه رجلا سقط من صليب على قدميه، ملطخًا بالدماء، ممزقًا ويحرك أطرافه في الهواء ويشتكي:

- أنا والدك! أبوك!

بسبب الأب، كان الطفل يكره الرجال، ولم يحتفظوا به سوى للازدراء والإذلال: لم يكن سوى نذل.

كان بيسي لا يزال يركض، للأمام، للخلف. سعيد كفراشة. على الطرق، أحب ***أوغستين*** التجول حول الصخور العملاقة بحثًا عن سر ما. قيل له إنها غول نائم عاش في الأزمنة الأولى، لكن الأصوات تطارد أعماقها. لقد أخفوا الكثير من الألغاز. قليل من الناس كانوا محظوظين بما يكفي لسماعهم أعماقها.

[III]

لقاء أحد المقاومين القدامى الذي طلب منه الذهاب لرؤية ابنته في القرية

قرر أوغسطين أن يستريح تحت شجرة ضخمة. كانت الشجرة تقابل ثلاث صخور عملاقة. وضع الطفل الحقيبة برفق على الجذع متعدد البقع. جلس على الأرض، ومد ساقيه.

على بعد حوالي مائة متر، كانت الحجارة تتناثر في أكوام صغيرة. لا بد أنها بقايا منزل قديم أو قلعة أو قصر. هناك، في زمن سحيق، كانت الحجارة تتساقط من الجدران. لقد هدمت الأيدي الجدران، وذرت الرياح الغبار عن اللوحات الجدارية، وكان من الممكن أن تدفنها الأمطار تحت الأرض الطينية. لا يمكن لأي أثر أن يخبرنا بما سيحدث لهذه الآثار. لا بد أنها كانت مدينة كبيرة مدفونة منذ قرون. كل شيء أصبح ركاماً بلا هوية. لم تكن هناك علامة تعريف. كان من المحتم أن تسقط الحجارة المنقوشة في غياهب النسيان. كان لهذه المدينة القديمة اسم، لم يتذكره أحد في الجبال.

في مكان قريب، كان العجوز بيسي ينبح دون توقف من تحريك ذيله، وأخرج لسانه المليء باللعاب: لقد دار كثيرا حول نفسه، وركض خلف الفراشات والجنادب، وجاء يمد رجله اليمنى ليبول على الحجارة المنقوشة. صرخ الطفل في وجهه بشيء ما، فرفع الكلب أذنيه عالياً قبل أن ينطلق نحو الأدغال التي تغطي الجبل.

في الغابة، أحب أوغسطين نصب الفخاخ، ووقع الكثير من الأرانب البرية والقنافذ والطيور فيها. ذات مرة، اصطاد فأرا سمينا، لم يفهم لماذا كان لديه جلد زهرة. شعر بدوار طفيف عند رؤية الفراء الملطخ بالدماء. كان بطنه مبقورا وعيناه مفتوحتان. فدفنه تحت شجرة زيتون برية قديمة.

بدا الطفل مشتتًا وحالمًا، ونظر الآن بعيدًا إلى ***ضريح آيت إدار*** المشيد فوق التل العالي الذي يردد الجميع عنه: ما مات من دفن في آيت إدار.

وكانت جموع الزوار تصل صباحاً وهي تعاني، ثم تغادر في المساء وهي مفعمة بالحيوية والبهجة. صحيح أن "الأمفيتريونات"1 لم تكن مفقودة أبدًا في هذه الأنحاء. كان الناس يأتون إلى هناك ليطلبوا بركة الولي إيدار وكلمات الآخرة السرية والوعود بالحياة السعيدة. تفاني المخلصين الذي يمكنه أن يحقق لهم الفوز بدون حاجة للإعلان عن ذلك.

من يستطيع أن يعيش دون أن يدعو إليه؟ وقيل إن أي زائر تطأ قدماه هذه الأرض المقدسة يشعر بهواء خفيف يملأ رئتيه، يزم شفتيه بوقع الحب، وتخف أطرافه، وتمتلئ عيناه بالمودة لجميع الكائنات الحية. هناك، ستفلت منه مصائب كثيرة، ويغمره السلام إلى الأبد. لم تعد مونيك إلى هناك أبدًا منذ الليالي السبع التي قضتها هناك مع طفلها الصغير لعلاجه من هذا النتوء اللعين للدهون، من هذا المس الشيطاني. هناك، منذ ذلك الحين، توقف النتوء عن النمو، لكنه ظل موجودًا. ولم تر الأم معجزة حقيقية، معجزة تجعل من البركة شيئا ملموسا في هذه الدنيا.

من بين صخرتين عملاقتين، ظهر ظل رقيق خلسة. تحرك، وأصبح إنسانًا، وخلفه ظل حمار متعب من السير في مسالك وعرة. تقدم الرجل العجوز نحو الطفل المضطجع.

بلفتة عفوية، وبقدر ما كانت حذرة، وقف أوغسطين. انتظر حتى وصل الغريب إلى مكان قريب، وكانت عينا الرجل الملتحي فارغة. لم يلحظ الأحدب ساق الرجل العجوز اليمنى وهي تنزف تحت بنطاله الممزق. لا بد أن هذا هو قاطع الطريق الشهير الذي أرهب المسافرين.

وواصل الحمار طريقه تاركا سيده وراءه. بالقرب من إحدى الأدغال، توقف وبدأ في مضغ بعض أوراق الشجر. كان يستمتع باستنشاق الأعشاب قبل أن يبلعها. ضرب الحيوان بحافره الخلفي، وهز الشعر البالي لفترة طويلة. عندما رأى الرجل العجوز الطفل يزم شفتيه، أراد أن يطمئنه:

[1] ـ المقصود بها الساهرين على الاستقبال والتغذية والخدمات التي تقدمها فضاءات مثل الأضرحة.

– السلام بيننا! لا تخف. لم أسرق قط من الفقراء، ولا حتى من الأطفال! نعم، لقد سرقتُ الأغنياء، الذين يأخذون منا كل شيء. إنهم يشكون من لا شيء. آه! آه! أنا لا أتبع قوانينهم، لدي آخرين يجب أن أحترمهم. نعم أنا لص، لكن لست من يسرق منك يا طفلي المسكين!

لم يفهم أوغسطين شيئًا. كانت لديه دموع الرحمة. كان خائفاً من فقدان كيس القمح؛ الرعشات تتشابك بعنف جسده. وحرصًا على تهدئته، سلمه الغريب كيسًا من الجلد الداكن. هذه البادرة طمأنت الطفل نسبياً. اللص قدم له قربانا. مد الرجل العجوز يده اليمنى، وقدم نفسه: اسمه موسى بن عمار، من سبط المختارين. تمردت هذه السلالة النبيلة ضد الضرائب والمضايقات. لقد كان النهب والسلب والاغتصاب من عمل القوة التي أرادت أن تخضع القبائل الخمس. وصلت القوات لتحصيل الضرائب، وفي حالة الرفض أخذت غنائم ثقيلة من الفلاحين. أضف إلى ذلك اغتصاب الجلود اللبنية، واندلاع الإعدام بإجراءات موجزة. لقد زفت الزوجات الحوامل إلى الجنة قبل أن يتم بتر أحشائهن، وتحولت الحقول إلى دخان. وعلى التلة العالية، لم تستطع النساء والأطفال الصراخ في وجه الجوع اللزج، والمنازل المدمرة بالكامل، والجلابيات السوداء التي قاومت. تحولت الجبال إلى حبال مدخنة.

موسى، واعٍ وخائب الأمل، حكيم وغاضب، قرر في يوم من الأيام تدمير جنود الشر الذين حكموا الجبال: أشعل الثكنات بالنيران، وسرق الروح من اللصوص والاغتصاب. منذ ذلك الحين، طُلب رأسه في حكم مهيب.

"افتح الحقيبة يا ابني!" قال موسى بصوت هادئ.

اكتشف أوغسطين مشبكًا صغيرًا وقطعة من الخبز القاسي وخرقا بالية.

- أعطني تلك الخِرقات! طلبه الشيخ.

جلس موسى على الأرض وأطلق تنهيدة من الألم، ثم أخذ الخرقات البالية ووضعها حول قدمه المجروح. تجعدت تقاسيم وجهه بفعل الألم. لم يُصلّ رجاءً إلى العلي الأعلى، ولم ينطق بأي كلمة للتخفيف. كان يتذمر بألفاظ غريبة يَلمح فيها الأحدب روحًا تناديه ليموت

كإنسان حر بدلاً من أن يعيش كأسير أبدي. كانت لديه رؤية: قال إنه رأى الناس يُغطون بأقمشة مظلمة كأنهم نجوم حجب نورها. كانوا يبحثون عن الصوت الذي يستطيع أن ينقذهم؛ لكن لا شيء سوى الصمت والفراغ ليستقبلهم.

لم تنطفئ تلك الرؤية في أعماق قلبه بعد.

"لا يمكن أن يستمر هذا". كان الشيخ يؤمن بقوة أن الأوقات ستسمع صوته، وتعطيه حقه، وتحقق مثاله. أوغسطين لم يفهم شيئًا من كل هذا. فعظمة الحياة هذه تتجاوز بالضبط رؤية طفل.

- ماذا لديك هنا في حقيبتك يا ابني؟

تعلم يا ابني، هذا البلد كان مخزنًا للرومان. كان لدينا أفضل الحبوب. كانوا يأتون إلى هنا للحصول على القمح لتغذية أنفسهم. كان هذا البلد يغذي جميع مناطق البحر الأبيض المتوسط. حقولنا كانت تقدم الخبز لروما. كان طعامنا جيدًا. القرطاجنيون الأوائل والعرب الذين وصلوا إلى هنا جائعين وغارقين، كانوا يبحثون في البداية عن إمدادات الطعام، وأكلوا الخبز الجيد هنا بشبع. كانوا يسمون أفريقيا أرض الخبز، ثم استمتعوا بامتلاك الأيدي الناعمة التي تعجن الخبز.

ذهب موسى في صراخ من الألم، وذقنه مائل نحو القطع الملطخة بالدم على ساقه.

- في تاغست، استمر في الحديث، "خلال عشر سنوات من عملي في مكاتب الإدارة العسكرية، زارتني فكرة التمرد. كنت مترجمًا، وزعموا أنني كنت قاضيًا أيضًا. لقد انتقدت الأيتام والأرامل، وعاقبت الرجال الذين قاوموا أو دافعوا عن كرامتهم، وسجنت الفقراء الذين احتجوا، فعلت كل شيء في مصلحة سلطة لا روح لها. تستخدمني فقط لتأييد الظلم الذي يمارسه العسكريون! كان كل شيء مشروعًا ضد الفلاحين. الشر يمتلك قوانين لا تمحو أبدًا التفاصيل. كانت الثروة موزعة بشكل سيء. كان من الممكن أن ينقص الخبز في بلد غني بالمحاصيل! قبل أن أقرر، فكّرت طويلاً. في النهاية، حاكيتُ المخططات ضد السيد

الذي يأخذ كل الخبز لنفسه، يضحك لمنظر الجائعين وهم يسقطون كالفئران المسمومة. هنا، قررت سرقةً بالضبط. فهذه النعمة يمكن أن تقود إلى الحرية شرط أن نتمسك بالتمرد.

كان الطفل مترددًا، وكان يحتفظ بفمه مفتوحًا أمام موسى. بينما المجرم القديم لم يتوقف عن تلمس القارورة التي كان يحملها حول عنقه، وكان يتحدث إلى الطفل كما لو كان مألوفًا لديه. لقد نسي أنه مجرد طفل، ولكنه *رأى* فيه مبعوثًا من السماء. ربما الحدّة كان لها دور في ذلك.

"لقد ارتكب أجدادنا العديد من الأخطاء. لقد كنا ضحايا طيبة نيتنا، ونسعى باستمرار لكسب ثقة الآخرين، وكذلك الحذر من ذوينا. العدو يظل في داخلنا. هذا هو بؤسنا! ولهذا السبب نعتاد بسرعة على إهانة أنفسنا."

من المحتمل أن موسى قد صرخ بهذا كله في وجوه أهل الجبال؛ ومن المحتمل أن هذا قد أثار استياء الجنود عندما علموا به. أصبح "مطلوبًا" بعد ذلك. تم وعدٌ بمكافآت، وتم تقديم هدايا للمقدمين والشيوخ الذين كانوا يبحثون عنه بشدة، ويستخدمون جميع الوسائل للقبض عليه.

- هل ستذهب إلى تاغست، يا طفلي؟ هل ستبيع قمحك؟ هذا ليس جيدًا. ستطعم الكفار !
- لا، أومأ أوغسطين برأسه. "سأذهب لطحنه في المطحنة".

قال له: "قل لها،" وهو يحاول إخفاء وجهه الشاحب، "إن العجوز موسى سيموت في يوم أو يومين. لست جريحًا. لست مريضًا. قل لها ببساطة: سأموت فقط. لست شقيًا. لها أن تنساني! أنا أنتمي إلى أزمانٍ أخرى. قل لها ألا تعود إلى المنزل، إلى الجبال. هناك، في بلدنا، لا يوجد سوى الجوع والأمراض. قل لها: أخذ الغرباء كل شيء. لم يبق لها شيء. هذا كل ما ستخبرها به، يا بني"!

توقف موسى لحظة عن الكلام، ثم استمر مستاءً بشعور غامض:

- اعلم أنني قد خنتها. وعدي بحمايتها لم يعد صالحًا. سأغادر قريبًا. جروحي تعفنت. العدوى سيأخذني. هذه الساق الفقيرة قد حملتني في كل مكان، والآن تأخذني معها !

لم يعد موسى حزينًا. صدمات غير مرئية تحركت في جسده. وخزات ألمه تدرجت به في إغماء. لم يعد قادرًا على رفع بندقيته. أحيانًا، كان يفكر في أن يهزها فقط بما يكفي

ليفجر رأسه. أمسك يد أوغسطين اليمنى لفترة طويلة، وقال له مرة أخرى أن يكون حذرًا. هناك الكثير من الأذى الذي ينتظره، وقد يكون ضحيته. لم يقل الطفل شيئًا، كان يستمع بانتباه.

زحف بخطوات ثقيلة، وعاد للمشي في اتجاه القمة من المنحدر، كانت ساقاه تحملانه بصعوبة. بعد عشرة أمتار، التفت ليصرخ في الطفل أنه سيأتي لاحقًا ليأخذه. سينتظره عند مدخل الكهف.

فكر أوغسطين، في ذلك الجرح النازف، سيكون من المستحيل تقريبًا على الشيخ العجوز أن يصل إلى القمة. لن يكون آمنًا بعد الآن. قدماه تُفركان على الأرض الصخرية، ويصاحبه غبار خفيف. نظر الطفل للسماء المضطربة لفترة طويلة: وإذا هاجمته الطيور الشرسة وتناولت جرحه، فإنها ستضربه على رأسه، متربصة بسقوطه المميت. إذا كان هناك ذئب أو ضبع متجوّل في المنطقة، ستكون ميتته محتومة ومعلنة.

[IV]

حين وصوله إلى منزل الطحان بالقرية

وبنفس الخطوات الثقيلة، وصل أوغسطين إلى شجرة الأرغان القديمة الوحيدة التي تميز مدخل تاغست، حاملًا لوحة خشبية متعفنة. تحت خيمة توفر له الظل، كان هناك جندي في اللواء يستمتع بتفتيش الزوار الذين يدخلون، والناس الذين يخرجون، يبحث في ما يحملونه وما يقولونه، عن شيء مشبوه.

هذه القرية، كما قالت مونيك، لديها تاريخ غريب. عرفت تاغست أيامًا ذهبية عندما جاء المستوطنون للاستقرار فيها. تصالحت القبائل الخمس التي كانت تتقاتل، وأقسمت بأن تكون يدًا واحدة ضد العدو. سقط المستوطنون كالذباب المرشوش بمبيد الحشرات، وأثارت الجنازات البعيدة أزمات سياسية. انغمرت القبائل الشهيدة في سنوات مظلمة لم تعد تستطيع التمييز خلالها بين الخير والشر، بين الثواب والعقاب، وتعاظمت المآسي في الجبال.

بخبث، نصب المستوطنون أنفسهم في المعسكر هناك: قاموا بجلب آلاف الفلاحين الشباب الشجعان كمرتزقة للقتال في معاركهم لصالح الحضارة. غير بعيد عن المدخل، كان الحشد يتجمهر بهمسات في ساحة صغيرة مغبرة، وكان الفلاحون يعرضون التين الشوكي، والذرة المقلية، والتين، واللوز، والخضراوات، وما جعل المارة ينظرون لهم بعين حذرة أنهم كانوا يتفاوضون بصوت عالٍ.

ما لفت الانتباه هو بائع السمك الذي انفصل عن الحشد، وجلس على مقعد أمام صندوق. كان يبيع السردين الملفوح بضربات شمس حارقة. كانت مجموعة من القطط تعاقبه بالمواء والطنين بصوت واحد، وكان دخول الباعة إلى الشارع المزدحم ممنوعًا بشكل قاطع خلال هذه الممارسة. لقد كانت الأم تحذر طفلها حينما ستدوس قدماه الأرصفة - إشارة إلى كل الشرور:

- هناك الكثير من المخاطر التي يجب أن يتحملها طفل مثلك! بالنسبة للكبار، يتم عرض الخطايا بشكل صارخ، فماذا عنك؟ ثاجاستة، اعلم أنها عبر العصور، جسد بدون روح لا يخشى الوصايا.

وكما هو الحال دائمًا، لن يدخل بيسي إلى ثاجاستة. كان يخشى رؤية أهل القرية، وعوى طويلاً ليقول لسيده:

أنا في انتظارك هنا تحت شجرة الأرغان! إن وقتك قريب، سيدي. أنت مسلم لأيدي الخطاة.

استلقى الحيوان بثقله، وذيله في الهواء. رأى كيف ابتلعت تاغست، التي بنيت في أرض منخفضة، الطفل القبيح الذي يحمل حقيبة، تحت نظرة فضولية من جندي في اللواء لم يتوقف عن مضغ أظافره. سحب من الكلمات تطوف في الرأس المخلص لصاحبه والذي يكررها: الحشد حوله في حالة اضطراب، ويعيدون نفس السؤال:

من هذا الطفل القبيح؟

يتعامل سكان تاغست بطريقة طبيعية، حيث يتغوطون في مراحيضهم ويتسخون فور خروجهم على عتبات بيوتهم! فذلك يبدو لهم شيئًا طبيعيًا. وبما أن الشارع ينمو في صفين من المباني، فإنه على الوجه الأكثر يصبح شبيها بجثة هزيلة وبلا رأس: يمكن للجسد المصبوغ بالإسمنت المشي، لكنه لا يفعل ذلك أبدًا. يمكنه أن يطير عاليًا في السماء الزرقاء، قريبًا جدًا من النجوم، لكنه مضطر للتجفيف ببطء حتى تصبح بشرته صفراء جدًا وتلتصق بالطوب. يفضل أن يكون هناك وأن يبقى نفس الجثة التي تجف تحت ضربات رجال بالأثواب الحمراء.

تحت حرارة مفرطة، حوالي الساعة العاشرة، دخل أوغسطين إلى قرية الاتجار غير الشرعي، وقد كانت خطواته متعبة. كانت الشوارع زلقة بشكل غريب: لا يمكن للعين أن تحتفظ بأي شيء مثير للاهتمام. الأسمنت يغلفها دون أن يتمكن من محو الغبار الذي ينبت في كل مكان. الطوب الأسود يرصف الأرض الصلبة. يمكن أن يشمل الروائح العفنة على جميع الأبواب. تم محو آثار الطلاء، وتحت ضربات الشمس المدخنة، تحترق الألواح القديمة.

في تاغست، لا توجد أي عائلة تستحق هذا الاسم. كان السكان المدينون قلقين ومتعالين، وكانوا يقولون إنها مكان ملعون، يليق بالفلاحين الفقراء الذين يأتون إليها مجبرين للتسجيل في السجلات المدنية، بحثًا عن وثيقة لا قيمة لها أو دفع مقابل خدمات لم تقدم أبدًا. أما أهل الجبال، فلم يقولوا شيئًا، لكنهم كانوا يعتقدون أن هذا المكان المقسم لا يمكن أن يناسبهم. الجبال أكبر وأكثر ترحيبًا.

تاغست، مبنية على أطلال مدينة قديمة، ينطلق منها صوتٌ تحت الأرض، لا يمكن الإمساك به، ويمكنه أن يحمل العديد من الأسرار. المنازل، التي تحمل أرقامًا غير متراتبة، مبنية على شكل موازٍ، مصنوعة من الأسمنت القاسي. تأوي هذه المنازل تجارًا غامضين يكسبون ثقة الجنود الفرقة. أما البضائع فتتدفق من السواحل بسهولة لتوزيعها في جميع أنحاء البلاد.

كانت القرية فخورة، وتحملت اسمًا صاخبًا. لا أحد يعرف المعنى الحقيقي لكلمة "تاغاست". بعض المباني الكبيرة والقديمة من الطوب تبرز كمؤسسات تدير شؤون الفلاحين. كان هناك ***معبد*** كبير ببرج يرتفع نحو الشرق، أرض النبوءات، الذي احترق عبر القرون وتغيرت

معه المعتقدات وفقًا لإرادة الفاتحين. وكانت هناك أيضًا الإدارة المدنية، والإدارة العسكرية، والمصرف، والسجن السفلي، ومكتب الضرائب، والمدرسة، والمحكمة، والمركز الطبي، ومؤسسة التضامن والتعاون. يقال إن هذه المؤسسة يمكن أن تساعد في حماية السكان الأصليين من الحاجة والجفاف والأمية والأمراض. يمكن أن تفعل الكثير من الخير للسكان الأصليين: بناء طرق وآبار وجسور ومخازن وموانئ ومراكز للولادة، كل ذلك لتسهيل حياتهم. ومع ذلك، يصر الفلاحون على عبور البحر الأبيض المتوسط، بحثًا عن مؤسسات أخرى إنسانية حقًا.

كان الموظفون، والموظفون الحكوميون منهم، والمعلمون، أولئك الذين كانوا يعرفون كيفية إدارة هذه المؤسسات المبنية من الزجاج والأسمنت، يصلون بصخب من الشرق في الحافلة على الساعة العاشرة، ويعودون إلى الشرق الساعة الثانية عشرة والنصف ظهرًا في نفس الحافلة المترجرجة إلى *هيبونة*. لم تكن لديهم رغبة كبيرة في البقاء في هذا المكان القذر والممل. كانوا يعبرون عن ذلك بلغة غريبة حيث تتحطم الحروف الساكنة والحروف الصوتية في صوت متنهد. كان الازدراء يصدح بصوت عالٍ في آذان الفلاحين الأميين. من لم تكن لديه نظرة تهديدية تجاه الموظف؟ من لم تكن لديه ابتسامة مفتوحة تجاه جابية الضرائب الجالسة على كرسيها المتعشب؟ كل ذلك كان يفهمه الفلاح بسرعة. كان يدرك أيضًا أن هؤلاء الرجال بزيهم الممزق كانوا يأتون للبحث عن بضائع مهربة بأسعار مخفضة: فرش، وسجائر، وويسكي، ومواد غذائية مغلفة بشكل جيد ومرتبة ومؤرخة.

على الرغم من ثقل الحقيبة، سار أوغسطين بخطوات سريعة نحو الطاحونة التي كانت في الرقم واحد في الشارع الكبير. عند العتبة، أسقط الحمولة بثقل وصوت القمح الصلب يلهب انتباهه في كل مرة. وبما أنه كان هناك عامل واحد فقط، كان عليه أن ينتظر. الهواء الثقيل يفرض الصبر، ويدفع الوقت للاندفاع ويسعد الزبائن. سيتم طحن كل شيء بسرعة، حتى القمح الصلب. في كلام الطاحونة كان هناك نوع من السخرية.

أنا أعرف أيضًا والدتك، قال له إسماعيل. إنها شجاعة. تَفضَّل اجلس! سأذهب، وسأعود في لحظة. لا تتأخر! سأطحن كيسك مباشرة بعد هؤلاء. أشار له بعشرين كيسًا من "هدية أمريكا". كان الفلاحون يحتاجون بشدة إلى طحن القمح، العنصر الوحيد القادر على تخفيف الجوع اليومي.

قال الطفل عارضا له قطعتين: لقد أعطتني والدتي هذا الدفع.

-اذهب، بعد ذلك يمكنك أن تدفع. ولكن لا تشتت انتباهك في القرية! هناك الكثير من الشوارع والمنازل والمباني. لا تفقد أموالك!

كان الحر يهدم النفس في الخارج، والشمس تمتد أصابعها الحامية نحو كل ما يتحرك بتألقات متعددة. لا تحتمل أي نفس لقاء هذه الأيدي الخفية التي لم تمل من إخماد الحناجر العارية. قليل من الناس من يجرؤون على المغامرة خارجًا.

في منتصف القرية، كانت الحافلة تُزمجر بغضب: إنها تتجه نحو هيبونة. في الظهيرة، ستظهر المركبة مرة أخرى. كان أوغسطين يسمع والدته تتحدث بشكل سيء عن السكان المدنيين:

لماذا هؤلاء المسافرون المتأنقون لا يرغبون في العيش بيننا؟

كانوا يعيشون في مكان آخر، بعيدًا عن اتصالهم بالسكان المحليين. كانوا يفكرون في مكان آخر. يتحدثون عن مكان آخر. كانوا يحبون كل ما هو في مكان آخر. لم يرغبوا في العيش هنا. لذلك، كانوا يعتبرون أنفسهم غرباء.

كانت علامات الشارع الوحيد ممحوة على الأبواب المهترئة. توقف أوغسطين، لأنه كان من الصعب عليه أن يستمر في عد وفك رموز الأرقام.

أين يمكن أن تكون مادلين الرقم الثالث عشر؟ هل هي جالسة على المياه الكبيرة؟

انحنى الأحدب ليتحسس أصابع قدميه المليئتين بالأوساخ، ويحك برفق أجزاء خفيه القديمين. كانت هناك همسات وأصوات وصيحات تأتي من المباني الكبيرة التي تكتظ بالإدارات حيث كان الفلاحون مجرد أرقام. كانوا يحاولون بشدة أن يستمعوا للكلمات التي لا يمكن فهمها. هنا، كانوا يفقدون أسماءهم وقليلاً من ثقتهم في فهم العالم. كان الموظفون يحملون تراخيص الاستغلال، وكان على الفلاحين أن يدفعوا مقابل الخدمات المقدمة، ليس كمواطنين.

فوق بوابة مزينة بأجزاء معدنية، يرفرف علم ممزق تحت نسمة هواء خفيفة. وقف أوغسطين أمام الرقم الثاني عشر حيث تقع عيادة القرية التي يكثر فيها النحيب والشكاوى، وحيث الأدوية نادرة، والعلاجات لا تُقدَم إلا مقابل نقود. سبق أن جاء هنا، في يوم من أيام الشتاء، حيث جلبته والدته بعجلة. كان يعاني من إصابة خطيرة في يده اليسرى، واكتشف أن الرجال الشاربين كانوا يبكون كالأطفال. تكدس الرعاة في الداخل مُبعثرين على الأرض، كانوا محظوظين إذ جلسوا على سجادة قديمة ممزقة. إذا احتجوا، إذا صرخوا، إذا صاحوا، إذا بكوا، هددهم الممرض بإيقاف الخدمة وعدم فعل شيء لهم. لكنْ يبدو أن الممرضة هي الأشد شرًا: كانت تصرخ في وجوههم لكي يسكتوا عن آلامهم، وتبتسم عندما ترى الانزعاج يتجلى على وجوههم المتجعدة. يمكنها من ثم استخراج المزيد من المال من جيوب المرضى لتخفيف معاناتهم، معدِّدة لهم الحقن والأقراص.

بالنسبة للفلاحات، كان العزاء الوحيد، أو ربما الانتقام، أو ربما الجحود، هو الهمس بينهن بعبارة قاتلة: "هكذا هي الفقيرة! ليس لديها أطفال." وكانت تليها تعابير وجوه لا تنتهي. لقد كانت هذه الممرضة تعتقد أنها تثير التعاطف بمظهرها الجاد.

أما مدير الممرضين، فهو محجوز في مكتبه، مشغول بملء شبكة الكلمات المتقاطعة المستوحاة من راديو ينتج أصواتًا شرقية. كان هناك شهيق غريب، بسبب الحرارة الشديدة أو البرد القاسي، والذي يدفع عبد السلام لعدم فعل أي شيء. كان يكره في الأعماق هذا البلاد المتسولة، ويحلم بالرحيل إلى كندا يومًا ما. يسترخي ويحدق في عقارب الساعة على الحائط التي تنكسر تحت وطأة العدم. لا يريد أن يعرف شيئًا عن زيارات الميدان إلى التلة العالية. ومع ذلك، في مناقشاته مع الطبقة الثقافية في المدينة، يمكنه شرح أصول هؤلاء الجبليين، ووصف حالة البلاد الأولى، وتقديم اقتراحات اجتماعية واقتصادية للقضاء على الأمراض والفقر. هؤلاء الأشخاص، كان يكررها في فضاءات المقاهي، ليسوا بحاجة إلى رعاية أو أدوية. يمكنهم البقاء على قيد الحياة في البؤس. لا يمكن للأمراض والأوبئة أن تفعل شيئًا لمناعتهم. كانت أجسادهم قوية من الولادة، فقط الموت، هذا الجاذب الأرضي الذي لا مفر منه، يمكن أن يكسرهم يومًا ليدفنوا. إنهم بحاجة فقط إلى الإيمان بالحضارة.

من نافذة، على الجانب الآخر من الشارع، لاحظ أوغستين أن شخصًا ما يصرخ ويوجه إليه إشارة لكي يقترب. كانت يد بيضاء تخرج من سياج متآكل. أحسنت، إنها بالفعل أصابع طويلة وناعمة لامرأة!

عبر الطفل الشارع واقترب من النافذة الصغيرة المظلمة. "تعال، يا طفلي الكبير! هناك باب صغير على اليسار." كان الباب، المصنوع من حديد مصدأ، مفتوحًا على مصراعيه. توجهت امرأة في الأربعينات من عمرها، ترتدي ملابس غريبة، نحوه في فناء ضيق. بدت مرهقة، حيث تتجلى التجاعيد مع رائحة حادة من الذقن إلى صدرها الكبير. كانت لديها دموع على خديها. لم ترتد سوى تنورة قصيرة وملابس داخلية داكنة. كانت نظرتها طفولية، تتجاوز الانعكاسات الخارجية للبشرة، مارة عبر الغرفة وتصطدم بالجدران البيضاء العارية.

تبعها الطفل إلى غرفة مظلمة كما لو كان يدخل كهفًا. اعتقد أن عينيه مغمضتان. قادته إلى أمام فراش قديم بأغطية سوداء جُعلت فوقه ملابس غير مطوية. بحركة مفاجئة، دفعت الفراش إلى الأسفل حيث كانت هناك مناشف وجرة ماء صغيرة. كانت تحاول إيجاد مساحة في مملكتها.

بصوت هادئ، سألته إذا كان لديه ما يمكنه أن يدفع به.

- نعم، لدي بعض النقود، سيدتي.

-هل سرقتها من شخص ما، أيها الشيطان الصغير؟ - لا، سيدتي.

- سيدتي؟ أتعيش في الجبال؟

- نعم، سيدتي.

- سيدتي؟ أعطها لي، وسأعرض عليك أشياء ستحلم بها طوال حياتك: رقصت للأمراء والقضاة والقادة. ستحظى برؤى لن تنساها أبدًا. ستحصل على زوجة وأطفال، لكنك ستفكر دائمًا في خُدعي، أنا فقط.

- ماذا، سيدتي؟ شيء جميل سأهديك إياه كراقصة! لك وحدك. شيء يبحث عنه الجميع! بمقابل قطعة نقدية.

- شيء سحري؟ كرر الطفل بصوت مغناطيسي. ألن تكون لي حد....بة؟

دون انتظار الإجابة، ناولها الطفل قطعة نقدية. انفجرت المرأة في ضحك عالٍ. جذبته نحوها، وأرادت أن تدلك الحدبة الملعونة. انتشر دفء لطيف في الجسم المشوه الذي لم يتمكن من مواكبة حركات الراقصة الناعمة. مشاعر الأمان والحب والعواطف الأخرى تتلاطم على جلده. عانقته المرأة بقوة حتى شعر بتهيجات غريبة على الحُدّبة، وتجرأت حتى على تقبيل رقبته. كان يشعر بالراحة للغاية، كأن الحدبة تسيل، تهرب من جسده. فجأة، نشأ الخوف في قلب أوغستين: ماذا تريد مني هذه المجنونة التي ترقص بدون موسيقى؟ رأى كيف تمسكت بالقطعة النقدية بقوة بين أصابعها، وهي تدور حول نقطة غير مرئية. تردد الاعوجاج، تلك الحُدّة تُقاوم التيار الجارف الذي يجره. ونظرًا لاهتمام الزبون الضئيل بفنها، دفعته الراقصة بكل قوتها.

- يا طفلي، حُدّبتك خارقة. إذا قدمت لك ألحانا سحرية، فلن تكون لديك حُدّبة بعد الآن. لا يمكن رميك كما لو كنت قماشة!

- أنا لست قماشة! صاح الطفل، وهو يلتفت نحو جهة الخروج. لم يستطع أوغستين التقدم، جسده يرتعش بشدة. تدمعت عيناه. بخطوات قليلة للوراء، وضعت المرأة القطعة النقدية مرة أخرى في يده، رافضة أخذ أمواله، وتوقفت عن رقصها.

كان ذلك يكفيها، حتى لو قالت في النهاية إنها ستُترك وحدها إلى الأبد. لم يأتِ أحدٌ ليطلب يدها، وهي تعلم أنها امرأة ملعونة. ظِل ضخم يمزق الفجر، واحدًا تلو الآخر، برقة، وُلِدت ***مادلين*** على هذه الأرض لتجهض الشموس، واحدة تلو الأخرى، بعنف. هذا كل ما كان يهمها، حتى لو تنبأت بأنها ستُهجر في النهاية إلى الأبد.

"سيأتي ذلك الغد الذي سترون فيه خطاياي!" كانت تحب أن تقول ذلك لزوارها المسحورين بملابسها القرمزية والسوداء.

كان الجرح الذي غرسه من قبل عمها غير الشقيق الوحيد هو الذي ينزف في روحها، يدفع بها للانتقام من جميع الذكور.

كان هناك أيضًا الناسك الذي اقتنصها للمرة الأولى، والذي كانت مغرمة به إلى الأبد. راهب خارق للعادة، ليس مثل الباقين، بقي على قيد الحياة بفرح رغم البؤس والجوع، ولكنها كانت تحبه بجنون. لحية كثيفة، وعينان لا تتسعان أبدًا، ويدان ناعمتان، ما كانت تحتفظ به كذكريات، بشكل أفضل من الأحلام.

مدّ أوغستين الدبوس الفضي، وأخذته مادلين بيد ترتعش. قبّلته قبل أن تضعه على ركبتيها العاريتين.

- ماذا تبكين، سيدتي؟ سألها بصوت مرتجف.
- أبكي لأجل الذين أحبهم.
- أوصاني العجوز موسى بأن أخبرك بأنه سيغادر.
- المغادرة؟ أين هو؟ ماذا فعل مرة أخرى؟ هل جرح؟"
- لا أستطيع أن أخبرك شيئًا.

رفعت المرأة ذراعيها نحو السماء وبدأت تنوح من دون أن تسيل دموعا. كانت تشعر بألم شديد في نفسها، من أعماقها كانت المشاهد تعود إليها. كانت تعلم أن الطفل لن يخبرها بالحقيقة كاملة

"الفقيرة!" قال الطفل بين أسنانه.

ألقت مادلين نظرة غريبة عليه. إن الشفقة التي يشعر بها البالغون تزعجها: إنهم يسعون دائمًا لتحقيق طموحاتهم المليئة بالحياة. ولكن هذا الطفل، إنه يشعر بشفقتها! كانت تبكي على حبالها. كانت تستقبله بذراعيها مفتوحتين!

-آه، نعم! استكمل الطفل. "يقول لك أن لا تعودي إلى منزلك في الجبال. لم يبق لديك شيء هناك، لا تفكري في العودة إلى أهلك.

- هذا أمر مستحيل!" استمرت مادلين في البكاء. "أيت جرمون لم يُدمر".

-سيدتي، قال الطفل بدهشة، "أتحبين موسى؟"

-نعم، سأضحي بحياتي من أجله. أين يختبئ؟ أين؟

سكت الطفل لحظة قبل أن يسأل:

- لماذا لم تتزوجيه؟

فجأة، اندلعت مادلين في ضحك هستيري، بصوت عالٍ جدًا حتى انزلقت مؤخرتها من على الكرسي المهزوز وسقطت بحركة متموجة على الأرض المسفَّرة. وبينما هي ممدة على الأرض، كانت تبكي من الفرح، هذه المرة، على خديها المنحوتين.

- موسى هو والدي! صاحت بصوت غاضب. هو أبي! تركني في هذا الغابة من الوحوش".

أما عن والدتها من تكون، فقد كانت تصرخ مرددة أنها لا تعرف عنها شيئا.

أصاب الطفل الخوف مرة أخرى. قام، وأعاد لها العملة المعدنية.

- أين هو هذه المرة؟ قل لي! صاحت مادلين.

لكن الطفل كان قد هرب بالفعل إلى الشارع.

[V]

بيع القمح للجنود وسجنه

عندما عاد أوغستان إلى إسماعيل، كان يرتجف قلقاً، إذ لم يكن بإمكانه استرداد الحقيبة المليئة بالقمح بسبب نقص المال. كانت تلك القطعة التي أعطاها لمادلين تنقصه الآن. كيف يستطيع الآن دفع الحبوب للطحان؟ يمكنه أن يقول لأمه أن اللصوص سرقوا المال منه، وأنه نجح فقط في إنقاذ الحقيبة المليئة بالقمح. لكنها ستصرخ بالعدالة وستبحث في المناطق المحيطة عن اللصوص الذين سرقوا قمحها. هناك أيضًا شريف إسماعيل الذي سيخبرها بالحقيقة: أن ابنها الصغير فقد المال أثناء تجوله في القرية. كان خروجه المتسرع يبدو مشبوهًا. بالطبع، لا يستطيع الطفل أن يخبر أمه بكل شيء. إن ضربات الأم كانت لا تُحتمل، حتى مع الأخطاء الصغيرة، وفي هذه الحالة ستكون مميتة.

- يا ابن يوسف! صاح الطاحون بوجهه، قمحك مطحون بالفعل. يمكنك الآن الدفع.

ماذا يقول له؟ لا، أوغستين لا يستطيع ذلك. ليس لديه ما يكفي من النقود. بوجه متجهم، قال له بصوت خجول أنه ليس لديه ما يكفي من المال، وأن أمه ستدفع له المبلغ المتبقي. كان إسماعيل، الذي لا يهتم بصلوات الفقراء الجبليين، لا يقدم أبدًا أي ديون للزبائن. يقول إنه يجب على الجميع الوفاء بالتزاماتهم. عندما نشر الطفل كفه مع بعض النقود، قام إسماعيل بعد العد وأخبره أنه لن يتمكن من استرداد حقيبته المليئة بالقمح. ينقصه خمسة وعشرون سنتيما.

– شريف إسماعيل، إذا بعتك بعضًا من القمح الخاص بي، هل يمكنك أن تعطيني الحقيبة؟

– أيها الذكي الصغير، أنا لا أشتري قمحًا! همس الطاحون. هل فقدت المال في اللعبة، أليس كذلك؟

– لا، ليس ذلك، سيدي!

– إذًا ماذا؟

– إنه سر. ستقتلني أمي إذا لم أعد بالطحين. من فضلك، خذ بعض الكيلوجرامات لعملك، وأعطني الباقي.

– ستلاحظ والدتك الوزن، لديها يدان ذكيتان. ستتهمني بالسرقة. ستضر بسمعتي.

– سأقول لها إن الحقيبة كانت ممزقة، وإن بعض الحبوب...

– أين فقدت المال؟

– أعطيته لمادلين التي تعيش في الرقم 13. المرأة الفقيرة.

– آه! إذا كانت هذه الراقصة تثير الشفقة، فماذا عنك؟ قال شريف إسماعيل وهو يضحك. يا طفلي، أنت أحمق. هذه المرأة قنديل البحر؛ تسلب جميع الركاب. أنت أيضًا تعرضت للخداع! الأسبوع الماضي، جعلت عشرات الأطفال يجنون بتعليمهم رقصة فاحشة. هذه المرأة أفعى: تجعل من جسدها رقصة تثير الفوضى في الجميع. ستثير غضب الله الذي سيرتد على ثاغاست.

– ماذا أفعل، سيدي؟

– بالنسبة لمالك، يمكنك الآن الذهاب إلى الإدارة العسكرية. يشترون الكميات الضخمة من الدقيق لمخازن الثكنات. كن حذرًا جدًا: يمكنهم سرقته منك. يمكنك بيعهم بثلاثة سنتيمات للكيلوغرام. ذهب شريف إسماعيل وأحضر حقيبة صغيرة، وباستخدام ملعقة كبيرة بدأ يصب القمح المطحون في الحقيبة، مع توزينه. يمكنه تخمين الوزن بسهولة عن طريق هز الحقيبة بقوة. خرج أوغستان بسرعة، وحمل حقيبة صغيرة تزن حوالي عشرة كيلوجرامات. فكر للحظة في العودة إلى الرقم الثالث عشر لاسترداد العشرين سنتيمًا وتقديم القمح للسيدة. لكنها قالت له أنها بحاجة شديدة إلى هذه القطعة! لم تخبره بشيء آخر. يجب أن تكون لديها أسرارها. فجأة، توقف الطفل، شعر برغبة قوية في التبول. اندفع إلى مقهى "لو بارادي" (الجنة)، حيث كان المتفرجون يستمرون في الجلوس على كراسي متهالكة يحتسون الشاي وحولهم الذباب يطنُّ بلا هوادة. نظر النادل، الذي كان يستند على المقصف، إليه بنظرة مرعبة ليحظر مروره ويشير إلى الشارع. لا يمكن أن يجلب هذا الأكفّ الإجابة سوى الحظ السيئ، ومع هذه الحقيبة المتسخة! شعر أوغستين بأنه صغير، فهرب وخرج إلى الخارج، وتجاوز منزلًا ليبتعد عن الشارع.

واجه أوغستين مناظر ملوثة حيث فتحت أذرعها الواسعة له. خلف المنازل، كان يشم رائحة البول والفضلات. توقف أمام شجرة زيتون قديمة. شعر بالهدوء يملأ صدره. على جذع الشجرة، جاءت صراصير تدور حول جرذ مفتوح البطن، للترويق... على عتبة المبنى الإداري، الذي كان يحمل الرقم الأخير 26، انفصل جنديان مسلحان عن الباب المصقول بالجير وركضا نحو السياج. كان أحدهما سمينًا وقصيرًا، والآخر نحيفًا جدًا. عند رؤية الطفل، تراجع حراس الأمن. ضغط أوغستين على الحقيبة وثبتها على صدره بينما يترامى العسكريون على بعضهم البعض بأشياء وهم يراقبون القمح. لم يستطع فهم ضجيجهم ولا تفسير حركات أذرعهم القوية.

– هل لديك خمر أيها الشيطان الصغير؟

– لا، أجاب الطفل بصوت خافت.

ثم، أومأ برأسه لفترة طويلة قبل أن يتلعثم ويشرح سبب زيارته:

- بيع القمح المطحون لسداد دين.

- أين ينمو هذا القمح؟ على أرض صخرية؟ إنه صدقة.

-هل سيكون صالحًا للأكل؟ هؤلاء الجبليون فخورون جدًا بقمحهم الصلب. يعتقدون أنه لديهم حبوب بحجم الحجارة. كان الجنديان يبتسمان طويلاً، وكانا يتبادلان النظر باستمرار:

- بكم؟ سأل الضخم.

- بثلاثة سنتيمات للكيلو.

- كم هنا؟ استأنف الجندي الآخر .

- عشرة كيلوجرامات. ستكون ثلاثين سنتيمًا .

اقترب الجندي النحيل من الطفل:

- أنت صبي ذكي: تعرف كيف تحسب بسرعة. لماذا تبيع القمح؟ في الجبال، لديكم دائمًا جوع شديد.

– إنهم يفضلون تناول الشوك فقط، سارع الضخم في الرد عليه، إنهم يعرفون كيف يبقون على قيد الحياة. إنهم يقاومون الجوع أكثر من أي شيء آخر. لا يمكن لأي شيء أن يُبيد إرادتهم. إنهم ينمون بفضل النقص. احتياجاتهم هي نعمة إلهية.

مرعوبًا من هكذا سخرية، احمر وجه أوغستين قبل أن يجد أخيرًا الكلمات المناسبة:

– ليس لدي ما يكفي لدفع رسوم الطحان. إذا بعته لكم بسعر اثنين ونصف سنتيم للكيلو، سيكون الثمن النهائي خمسة وعشرون سنتيمًا.

– ما عندكش فلوس؟

– ضاعت مني.

– ضاعت؟ أين؟

– لا، أعطيتها.

أظهر الجنود اهتمامًا واقتربوا أكثر من الطفل. صعق أوغستين عندما رأى أيديهم تلامس كتفيه. أمسك الحارس النحيل بياقته وجذبه قربه، ثم قام بخفض أذنه بلطف. لم يفعل الطفل شيئًا. كان الجندي يشد بقوة على أذنيه، مصرًا على السؤال:

- أين وضعت الأموال؟ أراد الصغير أن يتلعثم رقمًا، ولكن الجندي استمر في سحب أذنيه بقوة.

كان رجال القوات الأمنية، الذين كانوا يحملون رؤوسًا ساخنة بسبب الحرارة التي لم تترك البلاط الأحمر لأسطح الأسقف، يشعرون بالحرية في فعل ما يشاؤون مع هؤلاء الفلاحين المفلسين. كانوا يسبون أي شخص، يذلون المارة، يضربون أي شخص يقترب منهم، ويسجنون أي شخص يزعجهم. كانت سخريتهم مؤلمة للغاية بالنسبة للفلاحين الذين، لحسن الحظ، لا يفهمون لغتهم بشكل جيد.

- هل يدفع والداك التزاماتهما؟
- ليس لدي والد.
- ماذا تدفع والدتك إذاً؟
- والدتي فقيرة.
- أليست عاهرة؟ لا. والضرائب؟
- لا، ليس لدينا شيء، نعيش مع جدي.
- لا بد من دفع شيء على أي حال.
- أي ضرائب؟ يدفعها الجميع.
- لا أعرف. هل لديكم أراضٍ؟ حقول؟
- نعم. قطع صغيرة.
- حسنًا! يجب عليكم أن تدفعوا لذلك. هل فقدت أموال والدتك؟ نعم، ليس لديها.
- هل فقدتها في اللعب؟
- لا، ليس ذلك.
- هل فقدتها بالخطأ؟
- نعم. قمت بشيء خاطئ في مكان ما.
- في هذا العمر!
- سيدي...
- عليك أن تخبرنا بوضوح أين فقدت أموالك.
- في الرقم الثلاثة عشر، أعطيتها لسيدة.
- في الثلاثة عشر، سيدة؟ يا للأحمق الفقير! ماذا كنت تفعل هناك؟ هذا هو الفاجر. في هذا العمر، قد يرتكب الفساد بالفعل. لا. الرذائل ليس لها عمر في عقول الفلاحين. أمسك به جيدًا!
- لا، لم أرتكب فسادًا. أعطيتها مشبكًا صغيرًا.
- مشبك صغير غبي؟ من أعطاك إياه؟
- لا أعرف.

- ألهذا لا تريد أن تتحدث؟

أقعدوه في كهف في المساء. وعندما كان ينزل الدرج المظلم فقد أحد الدرجات وانزلقت قدمه. سقط جسده بثقله ليجد نفسه على ظهره المعقوف. كانت الصدمة عنيفة عند اصطدامه بالأرض المسفَّلة بالإسمنت: فقد سنًا عندما قلب جسمه. لم يبكِ الوحش الصغير. كانت الدموع مفقودة عنده.

هناك، في الحفرة، كانت تتدفق مياه كريهة، حيث تنتشر فضلات أول رجل سجن فيها، وتتجلى عظام إرادة دُفِنَت فيها، وتدور تفاصيل التاريخ وفقاً لألحان مغني القصائد، وتتحدث الصمت لصرخة مكبوتة إلى الأبد، وترنم أصداء جيش هائج، وأخيراً تستعرض ألم روح وحيدة مقطوعة طويلة بلا اسم. لم يفهم أوغستين شيئاً: كل شيء اختلط بعقله منذ الآن.

[VI]

المثول أمام القائد

في اليوم التالي، عندما دخل أوغستين القاعة الكبيرة ذات الجدران العارية المدهونة بالجير، ارتجف عند رؤية بعض العسكريين ينفجرون جميعًا في ضحكة واحدة. كانوا مشغولين بالتحدث بصوت عالٍ. كانوا يتفاهمون بشكل جيد للغاية، فكثير من الاحترام والأسرار يجمعهم. بالتأكيد، كانوا ينتمون إلى أجسام مختلفة، لكنهم كانوا يمتلكون رؤوسًا متشابهة: كبيرة ومحلوقة. كم يشبه هؤلاء الرجال بعضهم البعض في زيهم! إنهم قويون ويرتدون زيًا أخضر زائدًا.

تقدم أوغستين نحو مكتب القائد الأعجف. وأثناء تلمس وجهه، كاد يفقد وعيه عندما رأى الدم يلوث راحتي يديه. كان جوف السن المفقودة لا يزال ينزف.

أمام الطاولة القديمة المليئة بالأرشيفات المتسخة، أوقفه جندي شاب وأمره بالوقوف متماسكًا وهادئًا. حوله، كان الجنود يضحكون ويتحدثون ويناقشون ويزمجرون... مثله، كان عليهم الانتظار للقائد. شعر الطفل بالصراخ والنعيق ونباح الكلاب وصيحات الوحوش حوله. كان يعلم أنهم يتحدثون عنه. انتظر طويلاً، متنفسًا بصعوبة. أفكار فظيعة كانت تعترض طريقه. شعر لأول مرة بأنه تحول إلى لا شيء. سيتم قتله بلا رحمة، وسط سخرية الجميع. هنا، يحبون تجريد الرجال ليروضوهم. هنا، يسحلون الجلد. هنا، يعيدون تشكيل الأجساد. هنا، ينحتون النفوس، تحت صوت الضربات الجامدة، ضربات لا تنتهي. لا يُعدم هذا الوكر الضارب في القدم، من التحديات المؤلمة، حيث تخنقه الجدران بكثير من الصرخات.

هذا الطفل، الأعرج، ماذا كان يفعل هنا؟ كان مشاغبًا. لماذا قضى الليل في هذه الحفرة؟ أُبلغ القائد أنه قد شتم السلطة، وصاح "الموت للملك"، ودافع عن انتهاكه للقوانين، وحتى أراد أن يحرق العلم الوطني. هناك، بعد أن استغربت، تقدمت القوات بأكملها لرؤية العدو عن قرب. هناك، قذف الجميع بصاقه عليه، ونظرا لأن القائد، قومي صادق فإنه لم يحرم رجاله من الدفاع عن شرف الوطن.

لماذا ترجعون بإحضار طفل أعرج؟ قال القائد الساخط. أحضروا لي أولئك الرجال الذين يروعون القرية بدلاً من ذلك!

بينما كان يتطلع في ورقة، جلس ثقيلًا على الكرسي الأسود العالي. وضع شيئًا بسرعة على الطاولة. كانت تبغة مسحوقة. كانت حركة رأسه تشير إلى أنه يفكر بتوتر فيما يعتزم القيام به.

- سيدي! تجرأ الطفل على القول. لم أفعل شيئًا. سرقوا حقيبتي المليئة بالحبوب.

"يجب أن تفعل فقط ما يقال لك، يا صغير. هذا هو ما يجب عليك فعله. من أذن لك بالتكلم، بالخروج عن صمتك، باتهام الآخرين؟ هل تتجرأ على التشكيك في النظام؟ من قام بتربيتك أيها الجرذ الصغير؟ هل تتجرأ على اتهامنا بالسرقة؟ أنت جريء! من قام بسرقة حقيبتك؟ أنت تشبه بالفعل الإرهابيين. إنهم يصلون لآلهة أخرى توجه لهم وصايا أخرى.

- سيدي، أقسم أنني لم أفعل شيئًا. سُرقت حبوبي.
- من؟ صاح القائد ورفع يديه المكفوفتين.
- أنت لا تزال تدعي أن السلطة سارقة. تهمة أخرى. يا صغير، أنت تسعى لكي أرشقك في الساحة العامة، سأحتجزك في حفرة لمدة عشرين عامًا، سأجعلك تنسى هذا التباهي الذي يمجد به أجدادك الحقراء في كل لحظة. يمكنني قتلك. أنا أستطيع قتلك. لن يعرف أحد عنك شيئًا.

كان من المستحيل تهدئة القائد أبي موسى، إنه يلهث بشدة ويصرخ. لديه عينان متلألئتان، كما لو أن النار قد اشتعلت فيهما.

مرتبكًا، لم يفهم أوغستين شيئًا مما كان يتهجم به القائد.

كان هذا الطفل قد أخطأ بالفعل. كان ذلك واضحًا في طبيعته. في سنه، زار دور الدعارة. في سنه، كان يتعامل مع الإرهابيين. كانت الأوقات تتغير، وكان على القوانين أن تقضي على مثل هذه التجاوزات المبكرة. يجب أن يتوقع القانون الخطايا التي تولد، وإن أمكن إحباطها. ستكون هذه القصة موضوع الصحف والمجلات التي ستُطبع في اليوم التالي. ربما ستتحدث الإذاعة عن ذلك، وقد يحجز له التلفزيون برنامجًا خاصًا بعنوان "خطايا الطفولة"...

- الدولة تأتي لمساعدتكم، تقدم لكم كل شيء. توفر لكم الأدوية لتعيشوا لفترة أطول، وتمنحكم التعليم لتتعلموا كيف تكونون متحضرين، وتوفر لكم المعدات الزراعية والأسمدة لتعملوا في أراضيكم، وتحميكم من الأخطار التي تأتي من كل مكان، وتكفل لكم كل ما يمكن أن يجلب لكم الخير. وماذا تعودون لها بالمقابل؟ اتهامكم، يا صغير! فجوركم، أيها الشيطان الصغير! عنفكم، يا وحش يا صغير!

توقف أبو موسى عن الكلام في منتصف جملة حيث قال: "لا يمكن السماح لجاهل بـ..." ثم قام بصعوبة، حيث عرقله جسده السمين عن القيام بذلك بسرعة: بطنه وفخذيه، التي كانت لديها نفس الاحتفاء، كانت تصدر أصوات الشقوق في الكرسي العالي.

"معذرة سيدي، أنا أطلب مغفرتك! لا أريد حبوب القمح بعد الآن. أريد أن أعود إلى بيتي."

لم يتجاوب القائد إلا بعد مرور دقيقة طويلة، وهو يفتح عينيه على مصراعيهما. أمامه، كان الميزان يرقص كالسحابة التي تهزها نسمات إلهية. الغفران لكائن قد وُجِدت عليه علامات إلهية.

- ماذا فعلت بجانب ذلك، يا وحش يا صغير؟

- لا شيء.

- أين هو بيتك؟ على الطريق.

- ماذا فعلت هناك؟ لماذا أتيت إلى تاغاست؟ ما رأيك فينا؟ لماذا لديك أسنان فاسدة؟ وهذا اللقاء؟

- آه، سيدي، لقد نسيت أن أقول لك إنني قابلت والد السيدة. كان هو من طلب مني أن أرى هذه السيدة وأعطيها مشبكًا صغيرًا.

- فمن هو هذا الغريب؟

- قال لي إنه يدعى، حسنًا لم أتذكر، كان عجوزًا.

- ماذا؟ عجوز؟

- عجوز جدا.

- كم عمره؟

- أكثر من مائة عام.

- أتستهزئ بي؟

- لا، سيدي!

- أبعدوا هذا الولد عن ناظري، حتى يستعيد ذاكرته ويتعلم السلوك الصحيح.

بينما يضع القائد ذراعيه وراء رقبته ويتحدث بسرعة في أمور لا يستطيع أوغستين فهمها، كان العسكريون يعرفون أي أوامر يجب أن ينفذوها بسرعة. كان يفرج عن اللعاب بشكل كبير حتى تخيل الطفل خطورة العقوبات التي تنتظره. كلما صرخ، قلت الرحمة تجاه الكبوة. وبينما كانت دموع أوغستين تنهمر، طالبا الرحمة، لم يفعل القائد شيئًا، ظل يضع ذراعيه وراء رقبته، يبحث عن الهواء لمعدته.

- أنا؟ أنا لست مذنبًا. كل هذا، أنا لا أعرف شيئًا عنه. أنا لا أعرف الشيخ.

- آه، أنت تنكر! نحن لا يمكن أن نتسامح مع حيلك. بسبب كذبك، لا يمكننا أن نسامحك. الحكم في ملفك يعود للقاضي. سيعلمك ذلك الكثير. نحن نعد له الملف بعشر تُهم. فقط ذلك. إن العدالة ستتولى أمرك. إن عدالتنا فعالة: إنها تشكل المواطن الصالح. في كل مكان في العالم، يتم الاستشهاد بنا كمثال. العدالة تختلف حسب الطبيعة البشرية. هناك من يُقدم لهم العفو: النعمة هي فضيلة. وهناك من تطعن عيونهم لأنهم لا يفكرون إلا في فعل الشر، وهناك من يدورون حول حجر الطاحونة طوال اليوم: لديهم أجساد خاطئة.

أمام الضابط ذي الوجه الرخامي، انتاب أوغستين الخوف الشديد: كان يحرك ذراعيه كما لو أن يدي الشيطان تخنقه.

- صغيري، لا تقل هذا، ولا ذاك. لا تتحدث عن ذلك للآخرين! انس ما سنفعله بك.

- أه، لم أفعل شيئًا!

- قل لنا اسم الشيخ الذي يبلغ من العمر أكثر من مائة عام.

- لا أعرف.

- أما تزال له ذاكرة جيدة؟ أما يزال قادرا على التكلم؟ ماذا قال لك؟

- لا أعرف.

أبو موسى، بعينيه اللتان لا تزالان تشتعلان غضبا، يقول إن هذا الوحش الصغير كان عنيدًا: لا شيء يفلت منه. يمكن أن يُسجن وحده لأن ذلك، بنصيحة علم النفس الحديث، سيمنحه بعض الأمان ويقلل من عدوانيته. على أي حال، سيكون من مسؤولية القاضي أن يقرر ما سيفعله بالكبوة الصغيرة. رفع إصبع الاتهام عالياً نحو الشيطان الصغير، ثم قام بحك رأسه ليعبر عن أنه لديه ضميرٌ مرتاح في مواجهة طفل ذو طبيعة شيطانية. يقول في نفسه إنه لا يعترف إلا بالقانون، ولكن النعمة هي التي ستقرر في النهاية.

قدم الجنود في ترتيبٍ محكم التحيةَ للقائد الذي جر ساقيه نحو الهواء النقي. أخذوا الطفل بعيدًا وهو يتمايل في الهواء، متأرجحًا بنوباته، كسمكة في لحظة اكتشافها أنها قد وقعت في الشباك. عبروا ممرًا طويلًا حيث كانت الأبواب المعدنية تقسم الهواء، من الرقم واحد حتى علامة غير قابلة للقراءة. ربما مائة، ربما ألف، ربما عشرة آلاف. رأى أوغستين كم تكون الطريق مظلمة عندما لا يعرف الإنسان إلى أين يؤدي السباق.

اصطدم بالأرض المسطحة مرة أخرى. هذه المرة، لم يفقد أي سن: حمى نفسه بيديه في لحظة الاصطدام المؤلمة. نشأت شقة مريعة في حدبته، كأنها ضربات أسنان باردة ومجنونة شعر برطوبتها تخترق ظهره.

VII

رحلة الأم إلى القرية ولقاء الرجل العجوز

عندما كان المساء ينسدل بثقله على تاغست القاحلة والمكتئبة، قام الكلب العجوز بيسي بالنهوض، رفع أذنيه نحو السماء الشاحبة. كانت ظلال الجنود المشؤومة عند مدخل القرية تجعله يرتعد باستمرار. كان الحيوان يهرب بعيدًا عند رؤية أي جندي يقوم بحركة أو يصرخ بشيء ما. يُفترض أن يعرف الكلب، ككائن، عدوه وصديقه بسرعة. كان يعلم أن الرجال المسلحين سيكونون شرورًا لا تحصى. في غضون ذلك، كان يتجول طول النهار، يتخفى تحت ظل الأركان ويضم وجهه إلى التراب الرمادي.

خلال هذه الساعات اللامنتهية، أخذ الكلب بيسي وقته للتسلية. لم يمل من الجري وراء القطط التي تكون وهي باحثة عن سمكة سردين نتنة أمام بائع السمك الغارق في أحزانه، وعينه على الجنود الذين يحملون عِصيا وأسلحة.

كان ممنوعا على موديلا دخول دخول تاغست بسبب الذباب الذي يلتصق بظله. فأسماكه قادرة على تلويث الهواء وإفساده. كان عبدالسلام يقول بأن الروائح العفنة يمكنها أن تعدي العمال والناس الشرفاء.

مع نهاية الصباح، استطاع موديلا أن يبتسم أخيرا. ثلاثة زبناء جاؤوا في عجلة من أمرهم، تسوقوا واقتنوا بعض كيلوغرامات من السمك قبل أن يتخذوا الطريق الصاعد لأعلى التلة. صندوق النقود كان شبه فارغ. جعل بائع السمك بعض السردين في كيس ودرجات بدورها في نفس الاتجاه صوب المسالك الجبلية.

نظر الحيوان إلى الأعلى، إلى السماء: كانت خالية، بدون سحابة. لن تمطر. تاغست تتحرك ببطء: بعض العربات تدخل إليها في وسط الضجيج والغبار الأسود الذي يتطاير بسرعة من الطريق. السيد الصغير لم يعد! وأخيرًا سقط الظلام. حرك بيسي ساقا، ثم ساقين، ثم ركض بخطوات سريعة، فتح فمه على مصراعيه وتدفق لعاب ساخن. كان الطريق قصيرًا وطويلا في الوقت نفسه؛ الكلب يتجه نحو التلة العالية لإعلان اختفاء الطفل!

صعقت بصدمة عند رؤية الكلب ينبح بطريقة غريبة، فهمت مونيك أن طفلها لن يعود. أمام قدميها، ترك الكلب سردينة فاسدة كبيرة. أظهر لسانه بسرعة في وسط نباح عالٍ، كما لو كان يحمل رسالة الحزن. حدث شيء خطير هناك في تاغست!

كان تشعر بالشؤم. لقد وقعت للطفل مصيبة هائلة. لم يعد من المناسب انتظاره، مع عصا في يدها، ستضربه عندما تعرف أسباب تأخره. لم يكن هناك خبز في المنزل. لم يكن لدى

مونيك الطحين للعجن. كان الكلب ينبح بلا هوادة، يدور في نفس المكان، ويشم السردينة الفاسدة. كانت الحياة تقدم دومًا أقنعة مأساوية للأم الفقيرة: كانت تعاني، تصرخ، تجرح وجهها، تبكي، لا تعرف ماذا تفعل. كانت لديها رؤى غامضة: أوغسطين ملقى على الأرض، يفقد الدم، مصاب في جسده، ينوح من الألم، ملابسه ممزقة، طرأ نزيف على قرة عينها... لقد وضعوه في قفص.

كان ذلك يروق لأهل تاغست. لقد سُرق ابنها في تاغست. شعرت بالوحدة في هذا العالم.

لم تكن تبحث مونيك عن آثار هذه الظلال الصغيرة التي لا يمكنها الجري أو الكلام بدون إذنها:

لا تفعل ذلك، أنت مريض.

أه، ذلك المرض الذي سيحمله حتى القبر! وُلد أوغسطين دون أن يصدر صراخًا؛ جاء بهذه الطريقة، في صمت، على فرشة بائسة. كان لديه شق صغير جدًا بين كتفيه. يومًا بعد يوم، ملأ الفجوة بالدهون، وكما لو كانت خميرة غير مرئية تتصاعد، تتكاثف وتتضاعف في الشكل. أصبح في نهاية الشهر الأول، لحمًا صلبًا ومظلمًا. بكت الأم بعيدًا عن أعين الآخرين، مشفقة على هذا الوحش الذي حملته. كانت تحبه حتى الجنون.

كان الأب غائبا. لم يقل شيئًا، بل توسل بهدوء إلى الآلهة لوقف هذا الإهانة. لم يشفق؛ فالطفل كان بريئًا. بالنسبة له، الكائنات هي كائنات، ولكن الأطفال هم ملائكة. نعم، هكذا. هذه الغصة، هذا الابن، لا يستحق أن يكون له قرة عين مثل العديد من ذوي الإعاقة الآخرين. كان ابنه. لم ير أحد هذا الألم، كان الأب يعرف كيف يخفي مشاعره. كانت مونيك تفكر بالغضب الكبير للأب، وربما بغضب الأبوة.

أثناء رفعت مونيك العصا عاليًا قبل أن تسقطها على جسد بيسي الذي لم يصرخ؛ فراؤه لم يشعر بأي شيء. تحطمت العصا إلى ثلاث قطع، وقد جرحت مونيك إبهامها بها. بدورها، لم تشعر بأي شيء.

كانت الأم تبكي مثل طفل عندما تكون وحيدة. بكت طوال الليل، دون أن تتمكن من النوم. أليس من المتأخر جدًا البحث الآن عن ابنها؟ كان الوقت متأخرًا للذهاب والبحث عن الفقير أوغسطين.

أين يمكن أن يكون الصغير أوغسطين في هذه اللحظة؟ آه، هؤلاء اللصوص يجتاحون الطرقات! الشجيرات والهاويات والصخور تخبئ اللصوص والمغتصبين والعصابات والقتلة. حتى القراصنة وتجار التهريب، أولئك الذين يهربون من أمواج البحر المضطربة، يقومون بنهب السواحل. كل شيء خطر في هذه الجبال، سواء كنت من هذا الجانب أو ذاك.

انتظرت مونيك طويلاً حتى شروق الشمس، متقبعة في زاوية ما، تراقب السماء المليئة بنجوم متلألئة. أول ضياء يتسلل بخجل إلى الظلام في القاعة الكبيرة أظهر الأمَّ وهي تمسح الفرشة التي كان ينام عليها طفلها. نهضت بخوف. كانت تشعر بألم في كوعيها. هواء دافئ وثقيل يدخل رئتيها بصعوبة. كانت تعلم أن الحظ العاثر ينتظرها في نهاية رحلتها الحزينة.

بدون تناول أي شيء كوجبة إفطار، كانت الأم تركض بالفعل على الطريق إلى ثاغست، معتقلة بيسي العجوز بحبل يسحبه إلى الأمام، وهي تضع أنفها على آثار اليوم السابق. كانت مونيك تحسب الخطوات؛ تنطلق متسممة بالغضب، وربما بالقلق أيضًا. كان الحجاب الأسود يغطي رأسها بالكامل. في الأراضي الواسعة القاحلة، حيث كان الحذر ضروريًا، وحيث كان الانتباه مطلوبًا لفترة معينة حتى تتجنب المفاجآت غير المحمودة، في هذه الأماكن حيث الاعتداءات شائعة، كانت خطواتها تأخذها بسرعة، وبعد نصف ساعة وصلت بالقرب من *مقبرة آيت إدار*، حيث من المفترض أن يكون الزوار هناك، في الصباح الباكر.

متأنفة ومعصبة، وهي تضغط بشدة على حوافرها المرهقة، توقفت أمام غابة صغيرة، ولم يكن لدهشتها حدود عندما رأت رجلاً عملاقاً يظهر ويهرول نحوها، في شحوب وعرج. وشاحباً. لم تكن تعرف ماذا تفعل بالضبط: هل تصرخ، أم تصمت. الحمار بدون حمولة يتبع السيد. لم ينبح بيسي العجوز، بل قام بتدوير ذيله بحيوية: إنه يعرف جيدًا الرجل العجوز الذي يصيح فيهما، قادمًا بخطوات عرجاء، مثلما كان الحيوان ذو الأذنين الطويلتين مقبلا عليهما. لقد كان الحمار يركض خلف سيده، يأتي ليرعى في الغابة، بوجهه حزين.

- هل تبحثين عن ابنك؟ سارع الغريب ذو اللحية المكسوة بالثلوج ليسألها، وهو يفتح ذراعيه.
- نعم، أجابت بتشوش. كيف تعلم ذلك يا سيدي؟

أنا أعرف الكلب. جلس موسى على الأرض، مرهقًا. ساقاه مشلولتان تمامًا. بحث في جيوبه، وسحب شيئًا، ولمس رقبته المصابة برفق. لقد قابلت ابنك. تحدثت إليه. لم يعد ليزورني. كنت أنتظره عند مدخل الكهف.

- آه! قالت بدهشة.

كان للحمار أنف مظلم وعريض يظهر نواياه بسرعة.

-فأين هو الآن يا صغيرتي؟

- سيدي، أليس كذلك؟ ألا تشعر بتوعك؟ أنت مريض؟

رفع الحمار أذنيه عاليًا حتى يمكن اعتبارهما هوائيات.

- ما الذي يحدث، سيدي؟ ما الذي يحدث لقدميك، سيدي؟

- في الدوامات والسموم، قمت بخطوة صغيرة جداً. خائفًا من حركة السلطة التي تجتاح القمم بلا هوادة، شاهدت بؤسًا.

- هل أنت مذنب؟

- لا يعترف بي أحد. ابنتي، جرحت في كبريائها، ولا ترغب في العودة.

- هل رأيت أوغسطين؟

- ابنك لم يعد! كان يجب على القرية أن تصطاده في يوم من الأيام.

الحيوان الذي كان يراقب الغابة الخضراء على بُعد أمتار قليلة تقدم بثقل.

صمت.

- يا سيدي، باسم العلي القدير، أخبرني أين ابني. إنه بحاجة إلى مساعدة: إنه معاق.

- لم أره بعد ذلك، مرة أخرى. أترك الخطوة تتعثر وتتجول بين قبور هذه المقبرة الواسعة. رجالي الشجعان قد رحلوا: مجموعة في الآخرة، والأخرى على السواحل للانخراط في التهريب. الآن، أنا أحفر القبر بأصابعي.

كان الحمار يفرز الأعشاب الناعمة بأنفه، شفتاه الكبيرتان تمضغان قبل استخدام أسنانه الحادة.

- مكتوب هناك، هناك على جميع المقابر. يمشي الناس عميانًا. من الرجال الذين أحببتهم، لم يبقَ أحد.

رأى الحمار طائرًا قبيحًا وأصفر يتقدم على ظهره وسط صرير غليظ.

- أين أوغسطين، ابني؟

- لا أعلم.

- ستبتلعه ثاغاستة.

علم الحمار الآن أن الجبال ستكون خاوية. كان الفلاحون يتدحرجون نحو هيبونة للجوء إليها! سيأخذون أشكالًا أخرى، وكلماتٍ أخرى، وحركاتٍ أخرى. كانوا ينحدرون للاندماج تمامًا فيها.

- ما الذي تعرفه، يا شيخ، يا مجنون؟

- آه، أنا شيخ، ولكنني لست مجنونًا. أموت، أموت، فليكن كذلك!

لم تفهم الحيوانات لماذا يتحدث البشر كثيرًا ليقولوا القليل.

- أنا لا أستطيع مساعدتك. كلامي مشوه. أستطيع ولا أستطيع.

- ساعدني!

- اذهبي إلى مادلين في الرقم الثالث عشر. إنها تعرف شيئًا ما: رأت ابنك. إنها حزني الكبير، يمكنها مساعدتك. قولي لها إنها حُلمي الذي لطخ بالأيام. كانت حوافر أكساس باردة: إنها النهاية الملعونة للسيد. لماذا ابنتي؟ لا تقلقي يا امرأة! ابنك وابنتي هما نسلنا الفقير. ها أنا آتٍ، آتٍ. الجسد العجوز يتعب، انهار بثقله، وانكسرت الساقان القديمتان تحت وزن الصدر المتعفن. الكلام لا يزال قويًا: يمكنه أن يروي كل شيء عن الأزمنة السابقة حيث تتأرجح آخر تقلبات الكبرياء في كل اتجاه، لكنه يتلاشى ببطء.

-آه ! قال موسى. ضعيني هناك، أيتها المرأة الصالحة. خذي حماري. إنه الآن لك. قولي لمادلين إن والدها أحبها، لكن القدر الملعون قص شريطًا حزينًا لهذا الحب.

صدح صوت تنهدٍ خارق في السماء، ينبئ بالعذاب الذي يقترب من نهايته في المحيط. لتتوقف الصرخات! لقد فارقت الذئب روحه. انطفأ موسى وقلبه محطم، وراحت جفونه تشعر بالتعب من الرؤية المتكررة، تخفي شيئًا غامضًا، والروح المشوهة في جسد فارغ. نظرت مونيك لفترة طويلة إلى الجثة الخامدة، وفكرت: لا يعيش الإنسان حتى يتجاوز أكثر من أنقاضه.

امرأة شجاعة. بدون صلوات أو دموع، سحبته ببطء نحو الحفرة المحفورة. كانت الجثة ثقيلة جدًا. قررت مونيك أن تدفن موسى مع جميع الطين الذي استخرجته من التربة الصخرية. كانت أظافرها مليئة بالتراب. وسط صرير الطيور المأسورة، قامت بدهس الحصى ووضعت لوحة بيضاء حادة عند رأس الميت. جاءت لها أغنية قديمة في ذهنها، لكنها لم تستطع أن تتخلص من بين شفتيها. لم تشعر بحزن لهذا الغريب.

"*لموت كما نعيش! استريحي، أيتها الروح القديمة! لا تحلمي بيوم آخر. دعي أيامنا تذهب حيث وضعتها يد القدر، ولتكن هذه التشابكات تلبسنا ولا تتركنا عراة أمام فك المصير المروع*". كان هذا هو الخطاب السري لمونيك. كانت سعيدة: الآن لديها حمار، حيوان مفيد في جميع المهام. انحنى الحمار ذو الأذنين المظلمتين. كان أكثر حساسية من الإنسان: كان يشعر بالحزن يندفع عبر جسده عند التفكير في رحيل سيده تحت الأرض. إنه حيوان نبيل. لذلك، استأنف العجوز بيسي، وهو يراقب ظل سيدته، الطريق، مع ذيله الملتصق بفرائه الداكن.

VIII

لقاء إسماعيل وزيارتها للإدارة

كل ما هو على الأرض سيحترق. كانت الجبال تلتهم كل شيء تحت الشمس ولا تشبع. تتجرع الأرض الواسعة، بلا حياء، تكشف غابة شاسعة من الصخور العتيقة. تكرر الجفاف، كما قالت السيدة الفقيرة طوال الطريق، حتى ابتلع كل شيء. أسنانه الخفية تكسر الانتعاش والخضرة والنفس. تتلاشى الحياة في الرماد.

كانت الحقول الفارغة مليئة بالحجارة، تمتد بلا نهاية. على التلة العالية أشجار مقطوعة، وطيور مرتبكة، وماشية تائهة، ومنابع جافة، وأطفال جائعون، ونساء مهجورات، وآباء لا يبالون ومائلون للتجول.

كل شيء ينبئ بالتدمير في هذه البلاد؛ فلا شيء يمكن أن يبقى حياً تحت ضربات الشمس الباردة بلا روح. لم تكن هناك قطرة واحدة تهرب من الأجسام العملاقة والمظلمة التي تعبر السماء. هذه الثقوب السوداء لم تجلب سوى ريح قاسية لتحرق المزيد من الجبال. بالإضافة إلى يد السماء، جاءت يد البشر التي أشعلت الغابات في البحث عن المتمردين؛ حكومة القوة، كانت تخوض معارك وحشية ضد رجل الجبال، الذي يتلذذ بالمقاومة في بربريته. أرادوا أن يأخذوه ليروضوه بموجب قواعد الإدارات.

وصلت مونيك إلى تاغاست في منتصف الصباح، برفقة حيوانيها. تغطى رأسها بالقلنسوة السوداء القديمة وبطبقة رقيقة من الغبار. عند وصولها إلى موقف الجندي، فحصها بعناية بينما كان ذهنه مشتتًا. كان يعض أظافره بشكل مستمر. لم تكن لدى مونيك بطاقة هوية. كانت ملابسها مجرد أوساخ متسخة، ملابس مهترئة تلقتها هدية من زوجة ديفيد الثانية.

"توقفي، يا امرأة!" صاح الجندي أخيرًا. "ماذا تفعلين في تاغاست؟"

لم تتوقف مونيك، بل التفتت لتلقي عليه نظرة مليئة بالغضب والازدراء: "إذا كانت الكلبة تبقى على قيد الحياة عن طريق هز ذيلها، فهذا الرجل أيضًا"، وراح الجندي يُلوِح بيده ليعنيها بأن تستمر في السير بدون الكلب. أما الحمار فكان مسموحًا له بالدخول، حيث سيكون ذو فائدة. في تلك الأوقات، اجتاحت الحمى جنس الحمير، وكان الناس يعانون أكثر عند نقل الأحمال وجرها وتحميلها ونقلها وأداء مهامهم اليومية. بخفة، خرج العجوز بيسي من ظل سيدته، وركض بعيدًا، حيث سيرتاح تحت ظل الأوراق الشوكية لشجرة الأركان. كان يحسد الحمار، لأن الحمير يمكنها أن تتحرك بحرية، كما تشاء.

على عتبة المطاحن، شعرت مونيك بقلبها يرقص كفراشة تحتفل بنهاية الربيع: ستحصل أخيرًا على أخبار عن ابنها الصغير. لم تجد الكلمات المناسبة لطلب المعلومات من العامل في المطحنة. اقتربت من الحمار وفكت الحزام المشدود حوله. انحنت لتضع قفص الطيور السوداء بالقرب من إناء الماء الكبير "للمارة والمسافرين العطشى".

- سيدتي، هل تبحثين عن ابنك؟ سأل شريف إسماعيل عندما رأى مونيك تظهر في المكان، من دون أن يجرأ على التحديق في عينيها. "إليك قمحك. أمس، لم يعد الصغير ليأتي ويستلمه". "ابني لم يعد الليلة"، أجابت مونيك بحزن.

في الواقع، قام بكل ما في وسعه ليتم اعتقاله وستتم إدانته بشدة. لا يُسمح بمثل هذه الفضائح في منطقة تاغاست. أمام هؤلاء الجنود، كان من العبث محاولة الاستدلال بالعقل، أو التوسل، أو التسول للرحمة. ليس لديهم قلوب للشعور، ولا رؤوس للتفكير.

كانت مونيك تعرف كل ذلك بالفعل. زياراتها إلى القرية قد علمتها الكثير عن هذه الثياب ذات الروح الرخامية. كان هؤلاء العمالقة العسكريون يلحقون الكثير من الأذى بالفلاحين. لم يشفقوا على أحد. كانوا يقولون إنهم يعرفون كيفية التعامل مع الخائنين. كانت أيديهم قوية وطويلة ومتجعدة. قامت غاريسونهم بتخريب كل شيء وتدميره أو سرقته منذ الليلة الأزل.

وقبل أن تطرق الباب المفتوح، رأت امرأة طويلة القامة تخرج من الكهف، وكان رأسها مطبوع، وأصابعها تتحسس في جيوبها. بدت وكأنها مواطنة سعيدة ومشبعة. ربما كانت موظفة في إحدى تلك الإدارات الكبيرة. صوت أنثوي من الداخل، وهو يشعر بوجود ظل سيدخل، يصرخ "الذي بعده!" بصوت مرح. عندما دخلت الكوخ، رأت الفلاحة كيف يمكن للجفاف أن يسكن جدران غرفة مرسومة. كانت امرأة ترتدي ملابس كأنها ستؤدي رقصة، جالسة في وسط الغرفة. وجهًا لوجه مع مادلين، شعرت مونيك بالتعاطف يخترق قلبها مثل إبرة لا تنتهي.

- هل أزعجتك؟ سألت الضيفة برأسها المائل.

- لا، تفضلي، أجابت مادلين بطبيعية، وقامت لتغطية نفسها. أبحث عن ابني.

- أنت أم أوغسطين؟ بدا هذا الصوت مألوفًا عند مونيك. اهتزت صدمات صامتة في حلقها، مع قلق يتدفق ببطء في الأوردة. تدفق بغضب. كان هناك ضجيج يهز الأعضاء وكل اللحم في حركة واحدة. في آذان الزوار، كانت مادلين تغني بلغة ملتوية. في نظر المدينة، كانت تجمل عالم البشر، تؤدي رقصات سحرية. لم يكن العالم يستمع إلى شعرها السري. لم يفهموا رغباتها، ولكن هذا هو البؤس الحقيقي الذي تهمس به جميع تلك الأرواح التي تقرأ، والتي تستمع بغفوة إلى الموسيقى، والتي تفكر تحت شكل أوشحة متعددة الألوان في نفس

الرواية: الحياة تجري بحزن، الأمور تسوء بالنسبة لها، فقط بالنسبة لها، واليأس يسود في كل مكان.

لغتها أصبحت أكثر ثقة وتأملًا بينما جسدها يتشوه يومًا بعد يوم. في كل مكان تذهب إليه، حيث تصل، حيث تنطلق منه، يرى الرجال في رقصها تحررًا للروح، يطاردونها ليقولوا لها الكثير من الثناء. لم تهرب عندما ازداد تحرش الرجال بها، بل كانت مهذبة وسخية. كانت، بالنسبة لهم، الراقصة المجنونة على التلة العالية، التي كان لديها فيها والد يعتني بها، وأم تربيها، لكنها لم تحظ بالنعمة.

كانت مادلين تدور وتلهو من أجل الحياة. هنا، كما كانت تقول لنفسها، في هذه القرية المليئة بالرجال المتحمسين، كانت العقود الزمنية تترك أثرًا عميقًا على جسدها وتثقلها بشدة. كانت الليالي تنتهي عندها بالتعب والإرهاق.

فجأة، استيقظت:

- بالمناسبة، أرسلني والدك لأخبرك.
- والدي مرة أخرى! صاحت مادلين.
- رحل الفقير! قالت مونيك بصوت مؤلم.
- لا.
- الفقير. دفنته بيدي هاتين.
- يا فقير يا موسى!
- لم أكن أعرفه. ولكنه يجب أن يكون روحًا كريمة.

فجأة، سقطت مادلين على الأرض، وهي تصرخ بشكل هستيري "أبي! أبي! تركتني هنا، وسط الذئاب!" لم تكن لديها دموع في عينيها المفتوحتين على مصراعيهما، كانت تنظر في الأفق. فجأة، أغلقت جفونها.

وباستنادها إلى كرسي قديم، استعادت قوتها وفحصت وركيها العاريين لفترة طويلة قبل أن تغطي نفسها بجلباب أسود. لا لوم! قالت. الآن ينظر إليها الأب من السماء. يجب أن تتغير، أن تغير حياتها. كانت رقصاتها لحمًا ضعيفًا. أقسمت أن لا ترقص بعد اليوم لإسعاد القلوب الحزينة: إنها تمجد الشر بذلك. يمكن لموسى أن ينتقدها، وهي ستعمل من الآن فصاعدًا أعمالًا صالحة لكي تحصل على مغفرته. إن مغفرة الأب كانت دينها في الحياة التي أخطأت فيها كثيرًا برقصاتها. كانت تتوب، تتوب لتمتلك السماء.

قامت مادلين بحركة لدعوة مونيك للجلوس على الحصير القديم والقذر. بدهشة، كانت الراقصة تنظر إلى الشق الذي يمتد في السقف، وتكرر:

- أبي عانى كثيرًا. أبي! كانت العوارض ستنكسر في أي لحظة. لن يرفض أن يغفر لي.

ثم، قامت بحركة لتقترب أكثر من مونيك. حضنتها وهي تتلفت بعض الكلمات غير المفهومة. بقيت المرأتان متشبثتين ببعضهما البعض، جسدًا بجسد، لفترة طويلة. إحداهما كانت تبكي على ابنها الذي يبتعد منها، والأخرى على الأب الذي ترى فيه الخلاص. كان الحزن مشتركًا، والقلب ينبض بإيقاع واحد. كانتا تفكران في تلك الأوقات التي تسببت في خوفهما، حيث أصبحت الأيام أكثر ظلمة.

حوالي الحادية عشرة، بعد عناقات التعزية، خرجتا بخطى متعبة نحو المحكمة حيث كانت جلسة القاضي على وشك أن تبدأ، وعيونهما مليئة بالدموع، وهما تناديان الموت لينقذهما. منذ فترة طويلة، كانت مونيك تنادي الموت بأنه أجمل وأفضل مصير للإنسان، وبالفعل، لم تكن مادلين تفكر في ذلك أبدًا: لقد اكتشفت للتو هذه اللحظة المميتة، هذا النور المشرق.

[IX]

من حكم أوغسطين

لقد حاول أوغسطين التفكير في أشياء كثير قد تبدو رائعة وهو جالس القرفصاء في العتمة. تلك الكلمات الصاخبة، والجمل الطويلة، والخطابات الصاخبة التي صاغها خلال الأيام الطويلة التي قضاها في المراعي. لكنها اليوم أصبحت تشكل له صداعا، فكل شيء أصبح غير منسجم في هذا العالم. لا ينبغي الحديث عنها. هو يعلم بأن كتمان هذا الظلم سيعني العيش في ذلّ مستمر. على الأحدب أن يطلب مسامحة، ونسيان قمحه لأن قوة السلطة تستطيع نزع كل شيء منه والاستحواذ عليه متى شاءت ذلك.

حينما أتى الجنود لأخذه، لم يسمح لأي دمعة بأن تتذرف. دفعوه مثل حيوان ينقاد إلى المذبح. وحينما كانت ذراعاه تحاولان التشبث بالجدران الزلقة، أو يحاول ثني قدميه لإيقاف السير والمصير، كان يتلقى الصفعات.

داخل قاعة كبيرة يشتم فيها العفن، تقدم أوغسطين مذهولا، يجول المكان بنظرات منفعلة ومذعورة. لم يستطع تصديق ما يحدث له. ماذا يفعل هنا؟ هو لم يفعل شيئا، كان فقط قد نبه بإشارة إصبعه إلى الظلم الحاصل.

في عمق القاعة، وعلى مقعد جلستا، أمه ومادلين، بوجهين كأنها منحوتين من رخام. لن تصرخ الأم مونيك حين رؤية ابنها الوحيد، لم تسمح لأي تعبير عن الخوف لكي يرضي فضول الحضور في القاعة. صدرت عن جمهور الحاضرين همساته تنبئ بتذمرهم من نذير أمومة شريرة.

لا. كانت تعلم هي بأن ابنها الأحدب سيكون ميتا، مُضَحّى به، منتهيا، منذ ولادته. من الآن فصاعدا، لن يتركه العسكريون يعيش بسلام. لقد كانت عادة قديمة جدا، وهي أن يدفع المذنبون ثمن أفعالهم، وذريتهم كذلك. شدت الأم بقوة على وشاحها الأسود حول عنقها، محاولة إخفاء الرجفات التي تفضح اهتزازات رأسها.

عند دخول القاضي إلى القاعة المستطيلة، ساد صمت مطبق. اندفع إلى كرسيه الأسود العالي. كان ذهنه مشوشا، وكانت فكرة محاكمة طفل تثير انفعاله وغضبه، واكثر كلمة معاق. كيف سيغسل يديه ويطهرهما من كل هذا؟ كان في قرارة نفسه يرغب في تحريره باسم العدالة، لكن، في هذه القاعة، sكان هناك من يحدق به ويدقق في كل شيء، بل أكثر سيعاقبه من أعلى درجات الهرم القضائي باحثا إن كان هناك تسامح سيظهر في التعامل مع هذا الوحش الصغير.

أهل الجبل هؤلاء، ينظرون دائما إلى أعلى. يلزم تعليمهم خفض أعينهم والركوع على الرُكب والزحف كمواطنين صالحين. هذا هو القانون الذي كان يفشل في التحقق، وفي جعل العجرفة تنمحي. من أجل تحقيق هذا وجعلهم خاضعين ومطيعين، كان لابد من استعمال لغة بليغة ومقنعة احترام القوانين التي لم تفسر لهم من قبل يبدو أمرا ضروريا وملحا.

عادة ما يرتب القاضي كل ما سيقوله بناء على لفظ كلمة (نظرا)، تكون واضحة ومعقولة، وتدعمها كلمة (لكن)، تكون أساسية كذلك. تمر غالبا في صمت إلا أنها تقيد حركة تفكيره. ورغم تسلسل الجمل يكون ذهنه مغيبا بفعل دوخة غير ملاحظة. دائما ما يحدث نفسه بأنه يمتلك حدسا خاصا حيث يستطيع أن يميز بسرعة بين البريء والمذنب، الشرير والصالح، والمخطئ والفاضل. لكن فيما يتعلق بالأطفال، لا يدري ما يجب فعله. يشهد الله على ذلك بأنه كان يريد تطهير يديه من كل هذا، ولكن كيف؟

بالنظرة الأولى للطفل بدا (باراك) محتارا فجأة. لم يكن في حاجة لكتابه الخاص بالقوانين، سيكون التنزيل صعبا وغير عادل. كان عليه أن يتصور المتهم بشكل مغاير حتى يحقق معه عدالة ما. كل شيء يقع بفعل ما توحي له به روحه الداخلية والتي تلهمه، حيث لا يملك معها إلا التنفيذ.

ـ ستقولون لي بأنه مجرد طفل. لا، إنه ليس بصبي صغير. إنه شيطان. لقد ذهب إلى بيت الدعارة من تلقاء نفسه وبإرادته. الطفل الصغير لا يرتاد هذه الأماكن النجسة. لدينا هنا بالغ منحرف، مفتخر بجسده ومسؤول عن رذائله. يمكننا أن نحاكمه بما هو مناسب، إنه من النوع السيء والدنيء.

أراد الطفل أن يحتج، لكن صوته ظل عالقا بفعل الخوف.

ـ لم أفعل شيئا. مادلين تمتلك قلبا طيبا. أرادت معالجتي، فأكرمتها بقطعة نقدية.

ـ ليواسيني الله بالإيمان القوي، حيث أضع فيه رجائي كله. قال القاضي محتارا.

كان (باراك) الابن الوحيد في أسرته. لا يحب الأطفال لأنه لم ينعم بهم ولم ينجبهم قط. كان قرار كل الأطباء بأنه عقيم. زوجته الأولى لم تتحمل قط كل هذا. فبعد أشهر من الزواج، بدأت تجحفه بعدم الاحترام في المعاملة بنعته بالخنزير البارد، أو اللص "العادل". لم يكن ذلك يثير غضبه. كان يرد عليها ببرودة بألا تبحث عن مبررات لطلب الطلاق. لن يقع ذلك أبدا. هو الذي يقرر في نهاية المطاف، فكل الأوراق يجب أن تحمل توقيعه. هكذا تزوج امرأة ثانية أتى بها من الجبال حالِمًا بِرحِم خصب وقوي، لكنه استمر في عدم التنعم بصرخة أي مولود جديد. أما الثالثة فكانت أرملة، وهي الأخرى لم تهبه أي مولود جديد رغم أنها عددت الإنجاب فيما سبق لها من المرات التي تزوجت فيها. والرابعة كانت شابة صغيرة جدا، شعر أنه سيحقق معها الأمل أخيرا.

ـ ستنضج وسيكون لي معها أطفال كثر ستنجبهم بسهولة كبيرة.

انتظر (باراك)، ولم يحقق جديدا في موضوع الإنجاب. بدا منزله كمقبرة. ساد ذلك الصمت الثقيل، ومناخ القلق وعدم الارتياح من طرف زوجاته الأربع كان قاسيا على وضعه وأعصابه كقاضٍ. وللحصول على السلام الداخلي كان يداوم على الصلاة ويحمل نفسه على الصوم خلال أيام العمل حتى لا يتلبسه الشيطان الذي يختبئ في ثياب زيجاته الأربع. بفرط الخوف كان يتجنبهن حتى لا يتلفظ بكلام غير صائب. لن يغفر الله له أخطاءه لكونها ستكون بدرجة أفعال الشيطان.

شعر أوغستين أمام نظرة القاضي الجامدة بأن ساقيه تخونانه تماما. كيف يتوسل إليه طالبا الرحمة. لم يكن لديه ما سيقوله. من ذا الذي سيدافع عن قضيته؟ إضافة إلى أشكال السخرية التي أُلِفها، انضاف التعذيب الذي تعرض له بالأمس. محاكمة اليوم ستعمل على طمره إلى الأبد. كان مهيأ للمثول أمام الطغاة، وقد اخترق الخوف روحه بالكامل.

كانت روح القوانين مثل خيوط العنكبوت، تعمل على تعقب الرجال وترويضهم بشكل جيد. كان باراك يستلذ بالنظر إلى السقف وتمييز الغبار الذي يلطخ بياضه. هكذا يستطيع ذهنيا الفصل بين الخير والشر. بإمكانه تنزيل العقوبة دون حاجة لمعرفة أسباب النازلة.

يقال في تغاست إن الطائر الذي لا يطير بالرغم من انفتاح أبواب السماء له ليس بطائر. هذا ما كان القاضي يردده مع نفسه حينما كان يلحظ بكاء الأبرياء أو المذنبين الذين ينفجرون في قاعة المحاكمة.

كانوا كلهم مسؤولين عن أفعالهم وتهمهم قبل مثولهم أمام حضرته. لو أن الحياة جنبتهم الويلات ما كانوا ليفعلوا شيئا لتجنبها وتشكيل حياة جديدة أفضل.

لم يكن باراك يجعل حدودا بين الخير والشر. فكم من مرة حُكم على المرء بالإدانة لأنه عمل من أجل الخير. ذلك أن هذا الخير لم يكن في محله. لقد تحول إلى عمل شرير في نظر العدالة. وكم هي الشرور التي يُحتفل بها كأنها انتصار وقد تحقق.

هذه الشرور هي حقائق مفيدة في نظر العدالة. كان كل شيء يتكشف أمامه تلميحًا، مثل المشاهد السخيفة التي عاشها مع زوجاته الأربع. كانت الحياة مجموعة غامضة من الحواف، شجرة لم تزهر على الرغم من كل فصول الربيع الجميلة، وتتعفن. هذا أمر طبيعي: يحدد الخالد الأفعال عندما يكون الفقراء بالروح هم المنفذون. فهل يجب إذن إدانة البستاني؟ ولكن بالنسبة له، كان من الحكمة للغاية افتراض الحدود. كانت هناك أيضًا الجدية، وقبل كل شيء، كان يصنع القانون. في بعض الأحيان، كان يقول لنفسه كم كان ضميريًا وعادلاً في تطبيق روح العادات. على الأقل، لن يكون ذلك خطؤه، بل خطأ الأجداد!

هذا هو السر السهل للقوانين! كان يكرر له المعلم الذي بادر بتدريبه على أن يستعبد نفسه لله أكثر من القانون. هذه هي مزايا العدالة! الحد من الخطيئة والرذيلة! لا يوجد في الحياة ذنب صغير. خطايا، نعم. الناس خطاة. يجب الحكم عليهم انطلاقًا من هذه الحالة: إذا كانوا أوفياء للرحمة، وإذا كانوا غير مخلصين للعدالة.

أين ذهبت غطرستك؟ دافع عن نفسك يا صغير، على الرغم من أنه ليس لديك ما تقوله!

كان باراك يتحدث بصوت عالٍ وطويل مثل نهر فيضان، وكان يتلو مواد لم يسمع بها أحد. أراد الحاضرون أن يروا في هذا الولد المشوه تجسيدًا لخطاياه: لقد كانوا خائفين من غضب الملك: لأن الغضب الإلهي ظل غير مرئي.

في أدنى القاعة ضوضاء، كان القاضي يصرخ بأنه سيطرد الجميع أو يسجن من بدا له أنه مضطرب. وسرعان ما عادت القوانين والمراسيم واللوائح؛ والتزامات رُقعت وفقًا للمصالح العامة فانتشرت بسرعة في خطابه. كان هذا طويلاً للغاية بالنسبة للطفل الذي كان يعاني من جفاف في حلقه.

ماذا لديك لتقوله في دفاعك؟ ألا تتكلم؟ ألم تذهب إلى المدرسة؟ لقد هربت منها، أليس كذلك! ستدفع ثمن كل هذا، أيها الشيطان الصغير.

باسم ميثاق حقوق الطفل، أراد القاضي أن يفعل شيئًا لإثبات براءة هذا الطفل الذي اعتبره بمثابة ابن، لكن سبب الواجبات منعه، وأملى عليه عقوبة قصوى.

- لقد سرقوا قمحي يا سيدي! كانت صدقة ديفيد. كرر أوغسطين.

- لقد سرقوا منك الصدقة؟ أنت تفاقم الخطأ أكثر. قل لي: هل أنت مستعد للاعتذار لجنودنا؟ تجرؤ على تشويه سمعة عملاء النظام، وتعاملهم على أنهم لصوص صدقات. فكر جيدًا يا صغير فيما تتحدث عنه!

أراد أوغسطين أن يتحدث عن موسى، لكنه لم يقل شيئًا. لقد كان يقصد موسى، لكنه لم يذكره. لقد كان يعني الانتفاضة التي هزت الجبال، لكنه لم يتحدث عنها. كرر باراك عليه، بصوت جعل القاعة بأكملها ترتجف، أن موسى قد نقل أوامر زائفة إلى الفلاحين، وأنه بسبب تمرده عبَر الشعبُ البحرَ للبحث عن أرض الميعاد. كان باراك يعلم أنه إذا ذهب للدفاع عن النظام، فيجب معاقبة الطفل على كل هذا، وعلى لا شيء. على الرغم من أنه لم يرتكب أي خطيئة، إلا أنه كان هناك غش في فمه.

بضربة قوية من المطرقة نفذتها اليد اليسرى، فرض القاضي الصمت على الفور. أغمض عينيه ليترك ذاكرته تأخذ مظهرًا من التأمل، وأعاد فتحهما، ونفض بقلق بعض القش الخفيف الذي التصق بأكمامه العريضة، ليعلن:

- ثلاثة أشهر من الأشغال الشاقة لهذا القرد المتقلب!

انفجر الحكم مثل الرعد في القاعة. تم تنفيذ كل هذا في فترة زمنية سريعة. لم يستطع أوغسطين أن يفسر كيف أصيب بتهدج مستمر بعد هذا الحكم.

استأنف باراك حديثه، ويده اليسرى ممسكة بالمطرقة:

- وموسم آخر لتردد المقاومين.

كان الطفل فاغر الفم. ارتجفت الأربعون كيلوغرامًا التي يزنها على صوت هذا الحكم الأعمى الثاني. انهارت الأم بسبب الركبتين اللتين لم تعدا تحملانها عندما أوضحت لها مادلين الحكم. ستة أشهر. آه، موسمان لطفلها! كانت هذه فترة طويلة. كانت ترتجف بعصبية؛ لا يمكن للطفل أن ينجو من ذلك. رأت ابنها ضائعًا إلى الأبد.

واختتم القاضي:

-هل لديك شيء لتقوله يا صغير؟

-أنا عطشان.

وعلى الفور، تم إخراج أوغسطين من المحكمة. لم يفكر أحد في إحضار الماء له، ولا الخل. كان يبحث عن والدته بين الحاضرين، ولم يستطع رؤية أي شيء: لقد تغلبه الظلام. كانت الزغاريد والبكاء، الكل يتردد في القاعة. تم خلع الحجاب الأسود القديم للأم ولوح به في الهواء؛ كانت تصرخ مثل المجنونة. أرادت أن تقول شيئًا لرئيس المحكمة.

وعندما علم باراك بالصراخ، أشار إلى المرأة وأمر بإحضارها:

- تكلمي يا امرأة! من أنتِ؟

وتحدثت، وقالت إنها أم: كانت زوجة مطلقة. هرب منها زوجها. ليست مطلقة. كانت تلقي خطاب امرأة مرعوبة. وبما أن القاضي بدا غير متأثر بكلماتها، غيرت لهجتها:

- إنه لأمر مخز أن يتم سجن معاق صغير يا سيدي! كما قال موسى المسكين: أنتم مجرمون قانونيون. تختبئون وراء القوانين والمواد. لقد ذبحتم كل شيء. والذين يصلون إلى هنا، تضغطون عليهم مثل الزيتون. فليحفظك الله...

- أوقفوا هذه المرأة! هل نطقت باسم "موسى"؟ أحضروها.

- تحت الأرض.

- مختبئًا ليظهر مرة أخرى، ويقتل الجنود الطيبين؟ أين هذا المجرم غير المرئي؟ أنت تعرفين العقوبة التي تتعرضين لها بإخفاء مجرم. العدالة لا تسمح بالعراقيل.

- موسى ليس مجرمًا. لقد دُفن في مقبرة إدار. لقد مات بالفعل. روحه تتجول.

- مات!

- نعم، دفنت المسكين بهذه الأظافر.

رفعت مونيك يديها عالياً إلى السماء، وأظهرت أظافرًا لا تزال مليئة بالتراب. تنفس القاضي بقوة عند كلمات المترجم: لقد اطمأن. السلام سيعم الجبال أخيرًا. أراد أن يختتم التهديد بتهديد مونيك: كانت تحت القسم. وأخبرها المترجم أنها ستقول الحقيقة حتى ضد مصالح والديها.

ووضعت ركبتيها على الأرض:

- سيدي، كل هذا ظلم. ابني هو نسل هذه الحياة. لم يفعل نسلي شيئًا. تريد قتله. لقد نثرتم الذكور على أراضٍ أخرى، وأنتم منا، النساء، تفعلون ما يمليه عليكم قلبكم، الذي ينبض بالحقد، من الظلام، والأكثر ظلامًا. توقفوا عن آلامكم! أعيدوا لي ابني!

أشار باراك للمترجم بعدم ترجمة هذه الوقاحة. رفع ذراعه اليسرى عالياً: طلب الصمت حتى تتحدث الفتاة ذات الشعر الأحمر مرة أخرى.

تحدثت مرة أخرى ومرة أخرى، وفي النهاية خاطبت القاضي:

هل لاحظت يا سيدي القاضي أن هناك الكثير من الشر والظلم؟ في كل مكان. هذه المحكمة، بدءًا من هذه المحكمة!

أراد القاضي استئناف الكلام لإصدار أحكام أخرى، عندما نهضت مادلين من مقاعد الخشب في حالة من الانفعال وركضت نحو مونيك لتقف إلى جانبها. واصل الحارسان إمساك يدي الأم الجاثية على ركبتيها. كانت تنظر بنظرة مجنونة وابتسامة محكوم عليها بالإعدام.

- أنا، قالت مادلين لتقدم نفسها أو تعتذر، ابنة موسى.

- مرة أخرى، ابنته! صاح القاضي. اليوم اتضح كل شيء بفضل هذا الطفل. ماذا تفعلين في تاغاست؟

- ما أفعله، يعرفه الجميع. أنت تعرف ذلك أيضًا، يا سيدي القاضي. أنا ...

ثم، سكتت لمدة دقيقة طويلة. كان هذا ثقيلًا جدًا على الحضور. كانت مادلين صديقة أهل تاغاست عندما كان الملل يصيبهم بآلام غير مرئية، لا يمكن للرقص وحده أن يخففها، وكانت عدوتهم عندما يتبادر اسم الله إلى الذهن. هناك، أصبحت رقصتها غير محتشمة: كان عليها أن تتصرف باسم الشيطان. من لا يعرف أنها كانت أخف من الفراشة عندما كانت تؤدي رقصة البطن، مع تموجات أثارت حب الحياة. لم ترغب في الإشارة بأصابع الاتهام

إلى أولئك الذين كانوا يسيل لعابهم عندما كانت تلوي خصرها، كانت تدور على أطراف أصابع قدميها. كم عدد الاحاسيس الخاملة التي أحيتها في أذهان الناس العزل. كانت تعلم أنها شرارة الحياة في تاغاست، القرية الميتة.

- سيدي القاضي، تابعت مادلين بصوت خالٍ من التعقيد، متقنة لغة تاغاست، دع الطفل حراً. ارحم الابن! خذني مكانه!

- آه، ها هي راقصة يجب أن تخبرنا بما يجب القيام به! ليس هنا، ليس في محكمتي. هذا ليس رقصًا.

توقف القاضي للحظة، وتعرض للكثير من المشاعر واستأنف بنبرة حازمة. كان الحكم الآخر على وشك السقوط: كان يجب طرد المرأتين الحاضرتين على الفور من تاغاست، أصبحتا الآن شخصيتين غير مرغوب فيهما.

لو كان بإمكاني فعل كل شيء دون الخوف من العدالة الإلهية، لقلت إنه يجب قطع رأس مادلين، وإليكِ أيتها المرأة العجوز، يجب قطع لسانك. أنتما تخرجان من القبور، وتستحقان الطرد. أرجو منكما مغادرة تاغاست.

لم يستطع الحاضرون إلا أن يصفقوا لعظمة العدالة.

كانت الابتسامة التي ارتسمت على وجه باراك منذ آلاف السنين: كان بإمكانه بمفرده أن يلخص كل تاريخ البلاد. تقدم الجنود نحو المرأتين.

- قطع اللسان؟ لقد فعلت ذلك بالفعل، يا صاحب السعادة! صرخت مونيك. لقد قطعته بالفعل. صمت طويل في القاعة.

- لندمر أيضًا منزل هذه البائسة! أضاف القاضي الذي ارتاحت روحه مشيرًا إلى الجاني. يجب مصادرة أراضيها، وكذلك محاصيل الأرض، ولا تنسوا الحيوانات التي ترعى فيها! دعها تتجول مثل الضبع! يحظر على الراقصة ممارسة التمارين إلى الأبد. هذا حكمي. هذه المناورات التي تقوم بها النساء، الضحايا الأبديات، لا ترضيني! رفعت الجلسة.

نهض القاضي ببطء وخرج وعيناه مرفوعتان نحو الجزء الخلفي من القاعة حيث كان الميزان العملاق. عاد متمايلًا ببطء ليهز بطنه الكبير جيدًا. تخيل نفسه محاصرًا في شباك رقصة رائعة، وبالتأكيد رؤية زوجاته الأربع يستقبلنه في الهمهمة، تخلى عنه حب الحياة الرقيقة.

دون صراخ، انحنت مونيك نحو مادلين وهمست لها:

- ماذا سنفعل الآن؟

نظرت المرأتان إلى بعضهما البعض لفترة طويلة، كان الصمت هناك. لا شيء يمكن فعله.

في طريقهما إلى التل المرتفع الذي لم تعودا تمتلكان فيه شيئًا الآن، توقفتا، لفترة، أمام قبر موسى لتبكيان أكثر من البكاءعلى الموت. أخرجت مادلين من حقيبتها: بيضًا مسلوقًا وتينًا مجففًا وخبزًا كبيرًا صلبا. جلستا بالقرب من القبر، وأكلتا في صمت، تظهر فيها أسنانًا بائسة وشفاهًا متعبة.

عند وصولهما إلى منزلها، قررت مونيك تحرير بقرتها. لن تعطيهم إياها أبدًا! ركضت في الحديقة، وأبدعت في اقتلاع كل شيء.

- إذا كنتم تريدون تبديدي، خذوا خلايا النحل الخاصة بي!

كان كاتب الدولة يعرف جيدًا مجالات مونيك، لاكنه وصل متأخرًا برفقة الجنود. كان سيحدد الجدران التي يجب هدمها لهذا المنزل الذي أصبح بالفعل في حالة خراب.

دون اكتراث، كانت الأم ولا تزال تبكي، وهي تعلم أنها لن ترى ابنها أوغسطين مرة أخرى. كانت تأمل في جعل الرب يعود بالشر على أولئك الذين أخذوا ابنها.

لم يكن بيسي العجوز بصحبتهما؛ لم تره مونيك بعد ذالك أبدا. كان الكلب قد ابتعد، في مكان ما، بعيدًا جدًا. ضائعًا، أراد أن يضيع.

أما بالنسبة للحمار، فقد تم الاستيلاء عليه وتم تقديمه إلى الخادم الصالح، الطحان.

[X]

وحدة أوغسطين التنبيئية داخل السجن

اعتقد أوغسطين أن الرب قد تخلى عنه للمرة الثانية عندما وقع في الأسر. وعلى الرغم من دهشته، إلا أنه رأى ظلًا كثيفًا يعبر الجدار، تبعه سرب من الأضواء الساطعة. لقد كان ظهورًا اتخذ شكل رأس كلب بأذن مكسورة وذقن متدل، كما لو كان كلبه بيسي!

- أيها الملاك، هل أنت بيسي؟

صمت.

خارج السجن، في الأعلى، في الخارج، من وقت لآخر كان يسمع همهمة لطيفة من أهل تاغاست الذين صرفوا آذانهم عن الحقيقة واتجهوا نحو الأكاذيب. في بعض الأحيان كان يُسمع نداء امرأة فقيرة كانت تقول كل شيء عن الحياة، بنبرة مدوية، وأحيانًا بصوت أن يقول كل شيء مع إخفاء الجوهر. كانت نغمة تقطع كلمات كثيفة وتعجن كلمات ثقيلة وتمزج المقاطع ببراعة. لم تكن لها رائحة قوية، لكن تنبعثت منها رائحة لطيفة ورطبة.

أين حقيبتي؟ قمحى؟ أموالي؟ والدتي غاضبة مني: لقد تركتني، أخذوا كل شيء. ستضربني أمي. ماذا سنفعل؟ وبيسي، هل هو تحت شجرة الأركان؟ إنه ينتظرني. لن يطلقوا سراحي. سيقتلونني. آه، سيكون الأمر كما حدث مع سبي! لقد ضربوه على رأسه. هكذا، وانهار كل شيء أمامه. لم يعد العالم عالمًا. الرجال، ليسوا بشرًا لا أريد أن أصبح مجنونًا.

كانت أصوات التصفيق تتردد إلى جانبه وتتضح في رؤى غامضة. رأى أوغسطين سيارات تمر بصخب، وكان هو جسدًا ممددًا على الإسفلت الساخن. لم يكن لدى المتفرجين أي شفقة على الطفل المصلوب على الأرض. انتشر صوت نشاز على الأرض؛ حطم شيئًا غير محسوس. أصبح الصوت خجولًا لأنه أحدث أنينًا خفيفًا.

تم الاستشهاد بموسى بشكل مختلف:

لا يصلح لأي شيء، أي شخص سيدمر كل شيء، متهور. لا، إنه محرر، رجل عظيم، روح شجاعة في جسد من الفولاذ، كريم، أبدي.

من تصدق؟ من تسمع؟

أدرك أوغسطين أنه لم يعد فوق الأرض.

كان يتكئ على جدار جليدي، ويحمل ذراعيه متقاطعتين، وينظر إلى السقف الرطب والمظلم. لقد طار، ودخل النشوة التي تقدمها السماوات المفتوحة. شعر بأحشائه تصرخ بصوت حفيف.

في التل المرتفع، تم محو الطفل: فقد اعتاد على الفرار من الفلاحين وعدم الحضور إلى مكان ما، عند حدوث حدث مهم عندما يتدفق الحشد إليه. في نهاية أي مشهد، كانوا يضحكون عليه، وتحديدًا من سنامته.

كانت لديه خطيئته الملموسة، تلك التي شوهته في عيون الآخرين. لقد احتقروه كثيرًا لهذا السبب. من بين أفراد أسرته، عرف القليل من الفرح. في هذه الهاوية الرطبة، ظهر الكابوس وكأنه جرح ينزف. لقد كان ضوءًا حارقًا وأرجوانيًا في المظهر. كان الحزن ينبعث منه باستمرار. هل سيظل المعوق الأبدي؟ رافقته هذه السنامة طوعًا أو كرهًا.

عندما بسطت الليلة الثانية أشرعتها، علم أوغسطين أنه قد وقع بين براثن نفس الكابوس. لا شيء يمكن أن يحوله إلى حمار أو طائر. على شقوق الزنزانة، كانت الحشرات تتجول، وتدوس على الكتابات المحفورة على الحائط.

استمتع الطفل بالضغط بإصبعه الصغير على الخطوط والدوائر المخطوطة، كما لو كان بإمكانه من خلال اللمس أن يعطي لهذه الكلمات المؤلمة معنى. كان الصمت وحده هو الذي يمكن أن يفك رموز هذه اللحظات من الصرخات الجسدية؛ يمكن أن تفلت الكثير من الأشياء من القارئ الشارد الذهن. همس له أحدهم: **"اقرأ!"**

لكن هذه الحروف كانت ملقاة هناك غير مفهومة، وجاءت أخرى كارثية. حان دور أوغسطين في سلخ الجدار وحفر آلامه فيه وانتظار الوقت للشهادة عليها. خرجت نقاط وخطوط ودوائر غريبة من أظافره، ونقش ببطء، بطريقته الخاصة، على الأسمنت الفاسد. لقد كانت في الحقيقة جراح الأزمنة التي مرت، لتصبح ذكرى.

خلال الليلة الثالثة، لامست يدٌ قدميْه. كان النوم عميقًا، شعر أوغسطين كما لو أن كائنًا غير مرئي يدعوه إلى رحلة. شعر كما لو أن أيدٍ غير مرئية تنقله إلى مكان آخر حيث السحب الكثيفة. لم يعد السور ذلك الثقب الرطب، بل كان مكانًا خارجيًا حيث رفعه صهيل سحري خارج هذا العالم. كان مستيقظًا ومتعبًا من رؤية الكثير من الأشكال غير المرئية، لكن الهواء الذي عبره كان يجلد عقله. في كل مرة، كان يشعر بأن جدًا غير معروف يصرخ عليه بحكمة. اصطف الأجداد في عدد لا حصر له من الأصوات، وهذا كان قدرًا. قيل له إنهم يحبونه، وأنهم يخشون أن يصاب بالجنون في هذا العالم. وهذا جعله حكيمًا، رجل آخر سيرفع إليه الصلوات.

-ماذا تفعل هنا يا بني؟ سأله صوت بشري وسط حشد منكسر.

- لا أعرف. أعلم أنني لم أفعل شيئًا.

- ماذا يمكنك أن تفعل يا رجل؟ أنت أحدب. أنت ملاك. وماذا عن أقاربك؟ ربما تركوك.

- من أنت أيها الغريب؟

لقد كنت راعيًا. كان قطيعي كل شيء بالنسبة لي، ولم أكن أفارقه أبدًا. عند الفجر، كنت أدخل من باب الحظيرة، وكنت أهلًا للثقة بالنسبة لداود. لم ترفضني أغنامي بسبب سنامتي! ولا بسبب معطفي الغامق! أردت أن أفعل أعمالًا صالحة، لكن، لم يعطني أحد يده. لم يكن المواطنون يعرفون سوى أن يصرخوا بصوت عالٍ لكي أصمت، أو أغادر أو أتركهم وشأنهم. كان لدى البعض أيضًا هذه الشفقة الزائفة: "يجب أن نفعل الخير للأحدب! يكافئك الله. كانت كلماتهم تؤذي قلبي بما فيه الكفاية.

في بعض الأحيان، كنت أفكر في الهروب بعيدًا عن أهلي، وترك الماشية، وألا أكون الراعي الصالح بعد الآن. اليوم، ليس لدي أحد. أمي هي آخر من أفقده، لقد تركتني أيضًا. لم يعد لديها صبر تجاهي. إنها غير راضية عن عطية السماء.

كان أوغسطين يتلعثم في الكلام. كان دائمًا يفكر:

ماذا يجب أن أفعل بمفردي؟ لقد اختنقت هنا. إلى أين يجب أن أذهب؟ لم يكن يعلم أن منزل الأجداد سيتم تدميره، وأن والدته سترحل إلى مكان آخر. من سيستقبله بعد الآن؟

عند تخيل وجه الأم المخيبة للآمال، ذرف الابن الدموع. رسم أمامه ألف مكان، لكن لم يوفر له أي منها الأمان؛ في أي لحظة كانت فكرة البقاء ليلة واحدة فقط في الخارج تخيفه.

عند قدميه، كانت القوارض الصغيرة تركض من جانب إلى آخر دون الاهتمام بوجود الطفل. أعطت الظلمة الحياة للظلال. هناك، على الجبال، كان يستمتع بسحق حشرة واحدة في اليوم من أجل تطهير الأرض من "أولئك الذين يقضمونها بلا مقابل".

أقسم أوغسطين على ترك غضبه في هذه الثقوب المظلمة، ودفنه هنا إلى الأبد. في مكان ما، في مكان ما، كان حيوان مكتوم الغضب يصدر صهيلًا خافتًا. في سمعه، كان يكبر.

لماذا جاءت جثة البغل لزيارته هناك؟ قال الأجداد أن هذه ستكون نهاية العالم: ستتوقف العديد من الأرواح عن الجري، وستهاجر العديد من الأرواح إلى مكان آخر، في أي مكان، بعيدًا عن التل المرتفع. ومقبرة إددار بعيدة؛ وستتفتت جثة موسى مع مرور الأيام.

غمر الهواء الزنزانة بحرارة جهنمية، بسبب اللحم المتعفن والوسخ والعرق وعناصر أخرى غير مرئية. لقد خنقه ذلك.

لم يستطع الخوف أيضًا أن يتركه وشأنه، لم يكن أوغسطين يعرف ماذا يفعل بهذه البشرة الجديدة. ثم كرر ما قالته له والدته عندما وصل الحزن إلى ذروته في قلب المرأة المرفوضة:

من لم يُقِم بالسجن؟ السجن هو هذه الحياة نفسها. في كل مكان، تمد مخالبها.

رفع قدميه بيأس كإجراء احترازي، خوفًا من أن يخطو على شيء غير مرئي، في زنزانة مظلمة تمامًا.

عندما فتح الباب ذو الأسنان الصدئة، ملأ أنين طويل وكئيب سمع المستأجرين. جاء طفل إلى هذا العالم المظلم مصحوبًا بنور. تم دفعه متوهجًا وسط السجناء الآخرين المدفونين أحياء. سرعان ما أشفقوا على الوافد الصغير: لقد رأوا في إعاقته معجزة. لم يقل أوغسطين شيئًا ولم يشتك. إذا تحدث إليه الرفاق، فإنهم يفعلون ذلك كما لو كان كائنًا استثنائيًا. قبل معرفة ظلام الزنزانة، كانوا يُتهمون باللصوصية والتهريب والمجرمين والهاربين والإرهابيين. وإدراكًا منهم لإدانتهم التي لن تنتهي، فقد جرّوا خطاياهم بلا مبالاة.

- سنعتني بك. كان هذا وعدهم. لقد أرسلك الله لاختبار إنسانيتنا.
- آه! قال الطفل غير مصدق.

- هنا ستكون سعيدًا. في هذه الزنزانة، لن يكون هناك من يأمرك بالوقوف أو فعل أي شيء. أنت في منزلك، السيد. لقد قيل لنا أنك رأيت موسى جيدًا. كيف حاله؟

- المسكين يتألم في كهف.

ارتدى السجناء، وهم حوالي اثني عشر، نفس القناع: سقط الأمل مثل آخر شعاع في اليوم على وجوههم. لقد عرفوا موسى وتبعوه في كل مكان. لقد فرقهم القدر لأنهم لم يفهموا جوهر تعاليمه كمتمرد مستنير. لم يكونوا، في النهاية، سوى بشر من لحم ودم. لم يكن أحد على علم بموت موسى. حتى لو علموا بذلك، فإنهم سيفكرون في القيامة المعلنة.

هنا، كانوا يتحدثون بصوت منخفض. نادرا ما قاطعوا بعضهم البعض: كان لديهم كل الوقت اللازم ليخبروا بعضهم البعض بالأشياء. قالوا إنهم انتهوا وماتوا في عيون أهلهم. لقد كانوا هناك منذ قرون. لقد قالوا إنهم نسوا للأبد. لقد تم غسلهم هناك يومًا ما مثل الجثث، ثم قيل لهم إنهم ماتوا على صوت صلوات الجنازة. انتهوا تماما. نهاية مسارهم ومخاوفهم وأنفسهم. لقد أحبوا الآن قتل الوقت. بدافع الفخر، لم يتحدثوا أبدًا عن جرائمهم السابقة، ولا عن مآثرهم إلى جانب موسى.

- هل أنت من التل المرتفع؟ لماذا أنت هنا يا طفل يا مسكين؟ سأله أكبر السجناء، وذراعاه تحيطان بأوغسطين.

- لم أفعل شيئا.

كانت الضحكة على كل الشفاه. شعر الجميع في أعماقهم أنهم مذنبون ومجرمون وأن الفداء قد لا يكفر عن الذنب لأن السجن يعيق العمل الإلهي.

- جميع الرفاق يقولون إنهم أبرياء، صرخ عليه سجين بلا قميص.

كان شاعرًا. مجنونا، كما قيل، يبلغ من العمر حوالي أربعين عامًا، قصير القامة، بالكاد يرتدي ملابس، هزيلا. نادرًا ما يأكل، ومغطى بالأوساخ، لقد مر دون أن يلاحظه أحد من الآخرين. كان يحب تلاوة الأغاني؛ وبحنجرته التي كانت ترتفع وتهبط بلا كلل، كان ينطق بكلماته الذهبية جيدًا.

- لا تخف! قالوا للطفل. اسمه ويني.

قيل عن الشاعر الكثير من الأشياء التي كان من الصعب تحديد شخصيته معها: هل هو طيب؟ هل هو شرير؟ من يعرف؟ في الحقيقة، هل لديه اسم؟ من كل هذا، لا أحد يعرف شيئًا.

قال ويني عن نفسه:

- لو كنت إله الآيات، لكنت أهديت الأسرى فن الغناء الجيد. هذا سيجلب لهم الخلاص.

كان بإمكانه أن يخترق الأرواح، ولا يحكم عليها، ويتحدث عن الجنس البشري بأدق التفاصيل، بكلمات قليلة. لم يكن يحب أن يمجد الرجال الذين هم بطبيعتهم ثعالب. قال إنه ليس في سجن، وأنه يعيش حريته هناك، في أعماق الظلام، إنه يحب ذلك. لا يوجد جدار يمكن أن يجمد الرجل الحر.

اقترب مرة أخرى من الطفل وأمسكه من يده لإبعاده عن السجناء. أراد التحدث إليه. خاف أوغسطين في البداية، لكن عين الرفاق المبتهجة طمأنته.

- يا بني، هناك ثلاثة أنواع من الرجال:

الأول، خوفًا من الله القدير، يقوم بأفعال ويقيسها في اتجاه أو آخر. إنه ليس فريدًا في أفعاله: فهو يفعل الخير بقدر ما يفعل الشر. يمكنه حمل كلمات مكتوبة ومقدسة، لكنه يتظاهر بقراءتها أثناء تهجئتها. انظر إلى الملتحي الذي يخاف البرد، يحمل الكتاب ويتظاهر بقراءته تحت تلعثم هستيري، بنفس العبارة التي تتكرر: **"بارك الرب يا روحي!"** هل ستستجاب صلاته؟ من يعرف؟

الثاني، الطبيعي والعفوي، يجوب العالم بحثًا عن سبب وجوده. إنه يعيش بلا توقف، ويتحرك بلا كلل، ويريد أن يكون من هنا. يعيش هذا الشخص وحيدًا، مثل حبوب منفية على أرض قاحلة، ولدتها عاصفة يومًا ما وتاهت عنها إلى الأبد. لن يرى هذا الشخص الشيطان يختبره مرة أخرى، لا لمدة ساعة ولا لمدة أربعين يومًا. لقد نسي هذا الرجل السماوات.

الثالث...

كان ويني، كرجل حكيم، يستمع إلى قصيدة تفكير، وصاغ المقاطع، وقاس القوافي، وطرق الكلمات لتنقيتها.

الكلمات يا بني هي ذاكرتنا. إنها ذكريات الأصول. إنهم يتجولون حولنا بلا توقف.

كان من النادر أن يتضجر الرفاق من الاستماع إلى قصائده الطويلة. لكن مع مرور الوقت، بدأ السجناء يفضلون أوراق اللعب على الكلمات الجارحة.

في السجن، لم يكن أحد يعرف كيف يستمع إلى العقوبات جيدًا. لقد فضلوا بهجة الحياة، هذا التألق الذي أضاء الجدران في أحشاء مظلمة. كانت هناك قصيدة واحدة بشكل خاص، بإيقاع مرح أعجبت الرفاق كثيرًا. **غنى** ويني كثيرًا.

ليت السماء الطيبة أن صوتنا

من المستنقعات سوف يمر،

سوف يمر فوق السحب

تحدي العواصف هناك!

سنذهب سعداء إلى ما بعد

المملكة الكئيبة هنا،

سيكون الرجل الثالث هناك.

سعيدًا بالكلمات التي يمكن أن تقول كل شيء، صفق أوغسطين المسكين. بدأ الشاعر، الذي كان واقفًا ونظره متجهًا نحو نافذة الحديد، في المشي، أو بالأحرى يعرج، ويداه خلف ظهره، ويشق طريقه بين السجناء المتقوقعين والمنشغلين بلعب الورق. ثم بدأ في التذمر من كلمات ثقيلة: نساء تائهات، غرقى أبديون، فلاحون جائعون، سكان المدن يتجولون...

كما لو كان في هجرة، كان كل هؤلاء الناس يقفون على مشهد مأساوي.

والثالث؟ تجرأ أوغسطين على تذكيره.

آه! أنت لا تنسى. الرجال شعراء. لا، العكس هو الصحيح. الشعراء فقط هم بشر. الآخرون لا يفعلون سوى تدمير الفعل. مع التقدم في السن، يصبح الشاعر شابًا في رؤيته: مقاومًا لفكرة عدم القدرة على تغيير العالم. لماذا تقلبها لتصنع شيئًا آخر يجب تغييره أيضًا! لكن الكلمات لا، إنها تقول ما لا يمكن تغييره.

بالنسبة للسجناء، كانت ألعاب الورق هي النشاط الوحيد المسموح به في السجن لتنضج آمالهم الفاشلة. لقد لعبوا بجنون، يحلمون بالنصر النهائي على الآخرين. ميزة بكل بساطة. كان من الضروري الحصول على اليد الصحيحة، وهي الأنسب لسحق الآخر الذي كان يحلم بدوره ببطاقات أفضل أخرى لهزيمة الحالم الآخر. هذه البطاقات أعمت الرؤوس وأضاءت العقول؛ ونشأت الرغبات الملتهبة في قلوب الرفاق.

- أيادي الشيطان تجعلكم دمى! صرخ عليهم إيهود وفمه يسيل.

كان إيهود، الابن الأكبر لداود، يكره الألعاب: فقد أبعدت العقل عن الجسد وصرفته عنه بشدة. رأى الله اللاعب من هناك، وأراده ملعونًا إلى الأبد. لقد سحق أصابعه، في المقام الأول الإبهام والسبابة، التي لم تتعب من تحسس البطاقة السحرية.

داعب إيهود لحيته طويلاً قبل أن يضيف:

- لقد منحنا الله الحياة لا لشيء سوى للصلاة.

لم ينتبه أحد لوعظه ولا لدعوته للصلاة والصوم. استمر الرفاق في اللعب، وآذانهم مائلة إلى صرير البطاقات.

أما **ويني**، فلم يقترب من السجناء عندما بدأوا في توزيع البطاقات. ودحض أن تنحصر حياته في لعبة ورق. لقد انتظر البطاقات الجيدة لفترة طويلة. لقد دمرته ضربة حظ سيئة، أوضحها بعض الألعاب، تمامًا. بكى على سقوط الأوراق على الأرض الأسمنتية.

أراد الآن أن يكون شاعرًا، الشخص الذي يمكنه إتقان الصدفة وتحويلها إلى مادة لكلماته المعدلة. ليس دور الإبادة، لكن اللعب بالكلمات والصور يغذي الأمل. سيولد الجمال من جديد قويًا.

قال له السجناء على شكل لوم:

ويني، قل لرأسك أن يكون حكيمًا! صِغ الكلمات كما تريد! أنت تبحث عنها، لكنك تنسى البحث عن نفسك.

هرب الشاعر من هذه السخرية، وبدا أنه يبحث عن كلمات أخرى ستنقذه من هذا التحقير المستمر.

في صباح اليوم التالي، استيقظ أوغسطين متجمدًا: لقد أمضى الليل بين عمودين كما لو كان في كماشة تكسر عظامه. كان ويني أيضًا على الأرض على بعد مترين منه. حدق الطفل، الذي كان نائمًا قليلاً، في عوارض الفولاذ الصدئة. كان يعض يديه بعصبية، واحدة تلو الأخرى. ثم الساعدين، الأيمن بعد الأيسر، ثم اليدين مرة أخرى. شعر بأن أسنانه متعبة من العضات التي لم تشبع. شعر بجسده وكأنه حقل مستصلح غزاه الصقيع تمامًا. كان السجناء الآخرون مبعثرين على الأرض الأسمنتية. عندما لاحظ ويني أن عيني الطفل كانتا مفتوحتين، قال له:

- هنا ستحب الحياة. في السجن، نحن أحرار. لا يوجد شيء مستعجل. سأقرأ عليك "أغنية ذهبية" وهي التي ستغمرك بالشجاعة والحب لليائسين. يمكنك بعد ذلك أن تستلهم منها، وستعرف يومًا ما كيف تصبح شاعرًا.

بينما كان ويني يتلو أبياته الشعرية، كان أوغسطين يلتصق بالأعمدة الباردة. استمع باهتمام إلى الصوت الذي كان ينظم بنداء داخلي:

لا شيء من الأوقات الحالية هو سعادتك الحية،

ولا الشرف البخاري الذي تحمله في الداخل،

تتحدث إلي عن القصب المسكين الذي يرتفع،

يلعب بالريح وينطلق مع العاصفة ...

إذا صفق أوغسطين مرة أخرى، فسيوقظ السجناء الذين وجدوا في النوم السلام.

ركع إيهود أمام النافذة التي كانت تشرق منها أشعة الشمس بخجل، وصرخ عليهم:

- كان هناك مجنون. الآن اثنان. أوقفوا هذه السخافات! اصمتوا! ويني، غير مرجعك، وإلا فإن أغنيتك ستقتلك من الحزن! صمت! نحن ننام.

مرت الساعات لا نهاية لها. وتتابعت الأيام. الأسابيع أيضًا. لم يكن الوقت رتيبًا، لكنه كان قاتلاً لأنه كان هناك توقع لشيء غائب. كان الهواء كريه الرائحة؛ استمر موكب حياة الرفاق في الرنين مثل ألعاب الورق المختلفة.

في صباح أحد الأيام، مبكرًا جدًا، زحف الشاعر برفق لإيقاظ أوغسطين. حدق الطفل مذهولا في العوارض الصدئة، رأى أن روائح التعفن تتساقط على الجثث المتراكمة. انحنى ويني بصعوبة وهمس شيئًا للطفل النائم. وأعلن له وهو يهزه أنه قد صنع له أغنية جديدة.

- ما هذا؟
- كلمات وكلمات. قطعة حقيقية حيث الكلمات.
- كلمات؟
- حلمي الكبير هو أن أموت مختبئًا وراء كلمات راقية يمكن لمقاطعها أن تترجم كل لحظة من حياتي. الكلمات هي لغز، والآيات تخدم لتحريرها من أي غموض.

استغرق ويني وقتًا طويلاً في جمع آياته من أعماق عقله، وتخزينها في حلقه، وتقطيعها باللسان وأخيراً تحريرها عند فك الشفتين:

انظر يا رجل يا صغير، أنت يتيم!

في ليلة تزحف عبر الطرق،

بالنسبة لك، تدور الأحلام على الأرض، هواء قاسٍ.

ها هو أب لا يتأثر بأبنائه

هذه المرة، لم يصفق أوغسطين. طوال مدة القصيدة، ظل يفكر. كان لديه الكثير من الدموع في عينيه. شيء غامض وخزه بقوة في قلبه. كان الغناء يعبره بحزن. في صوت الشاعر الساحر، يمكن أن يقرأ أوغسطين أيضًا صفيرًا بشريًا، بدفء الأب تقريبًا؛ وعلى العوارض الصدئة رأى أياد غير مرئية، أيادي الأب، ممدودة نحوه، مليئة بالدماء.

ربما لم يكن ويني صبورًا كما تركه يسمع. عند ترديد نصه، كانت الكلمات تؤذيه كثيرًا، أكثر من ساقه اليمنى. في مواجهة هذه النظرة الفارغة والغامضة، يمكن أن يقول أوغسطين أن المغني كان يعاني كثيرًا، وسيكون لديه ندم وندم مخفي طوال أيامه المظلمة.

آه، تأوه الطفل وهو ينظر إلى الشاعر، هذا الأب الذي نسيني موجودٌ بالفعل! هل يمكنني أن أنساه أيضًا؟

بالتأكيد، لقد رحل. بعيد. قريب جدا. في مكان ما. لكان عقبة مثل كل هؤلاء الآباء الذين أحبوا العقاب أو العقوبة، ولكنهم لم يحبوا أو يضربوا أبدًا.

- هل لديك أطفال يا سيدي؟

عند سماع "سيدي"، حوّل الشاعر نظره، وبحث عن ظلال على الحائط. نهض، واتخذ حوالي عشر خطوات، بعيدًا عن الطفل. طوال فترة بعد الظهر تلك، كان يهرب منه. لم يقل شيئًا، وكان سعيدًا بحك رأسه، وعقله معذب.

منذ سجنه، كان ويني ينام قليلاً وبالكاد. كان يتقوقع في زاوية، وكانت عاصفة من الأفكار السوداء تسيطر عليه. في بعض الأحيان، كان يدور بقشة بين أصابعه. في بعض الأحيان، كان يطلق إصبعه الصغير للكتابة في الفراغ أو الرسم أو نحت الهواء. وهكذا، قال إنه يمكنه اللحاق بالنوم، لكن ليس بالوقت الهارب.

- من يستطيع أن يخلق، تأوه ويني، وينسى خلقه؟ من يستطيع فعل هذا؟ أنا والله! صرخ.

لم يحضر الملاك إلى الموعد لتحرير الأسرى الاثني عشر الذين بدأوا الآن في توزيع البطاقات، متخيلين أنها علامات على الخلاص. ستسقط النير عند الحصول على يد جيدة. وحده ويني رأى في السجن هذا الكهف الذي أنقذه من النيران. لقد أحرق الكثير من البخور في مقطوعاته الشعرية لدرجة أن المكان المظلم بدا وكأنه معبد.

جلس الشاعر والطفل هناك، وتحدثا حتى دق الجرس لتناول الطعام. هناك، انضما إلى الحشد في غرفة الطعام القذرة. في الوجبات، تم تقديم القليل من الخبز ووعاء من الماء بالدقيق، وكان من المتوقع أن يستعيد الأسرى الحكمة بتجربة الفقر.

على الرغم من أنه طُلب منه أن يروي ما كان عليه، إلا أن الشاعر لم يكن لديه الشجاعة الكافية للكشف عن ماضيه. لم يقل شيئًا عن ذلك. لقد ثرثر عن كل شيء، عن الحاضر، عن التجربة. قصته هو، في الواقع، بدت زائفة في كلماته.

أعجب أوغسطين بالنبرة الأبوية للشاعر. أعطته الآيات الرغبة في الاستمرار في الأمل.

لم يمل هؤلاء السجناء من لعب الورق التي تسقط إلى ما لا نهاية لإظهار رسم أو رقم أو عرض لما سيكون عليه العالم في لحظة. تتحول البطاقات في لحظة حاسمة. كان من الضروري أيضًا أن يهتم اللاعب بالزميل إذا لم يغش، أو يحسده إذا كانت هذه اليد غير المرئية ممدودة نحوه.

كان هذا هو السؤال برمته، في أعماق سجن بلا وقت. كان الرفاق الملعونون مطمئنين للحصول على حساء ساخن على الأقل. لكن، كم هو بغيض!

[XI]

تحرير أوغسطين

مرت ستة أشهر بوتيرة متعثرة. بدأ السابع في غفلة السجانين. وآخر تم إلقاؤه على صوت البطاقات في الزنزانة. لقد نسينا هناك الطفل الذي لم ينفصل عن الشاعر المهتم بالكلمة. جاء اليوم الذي أُعلن له فيه أنه يستطيع رؤية القائد الذي كان في نفس الوقت مدير السجون. كان ذلك في الشهر التاسع على وجه التحديد.

أمام أبي موسى الغارق في كرسي، والجو هائم، وهو يضرب نفس المكتب العظمي، ضغط أوغسطين بإبهامه على ورقة بيضاء ليترك عليها دليل سجنه.

يمكنك المغادرة غدا! صرخ فيه. أنت محظوظ. اذهب بسلام! لا تحاول العودة إليه!

حول الطفل، أصبح كل شيء سلامًا وفرحًا أقوى. الكلمة المنظومة، قوة روحه، كان يعلم أنه أول من خرج من السجن.

في ليلته الأخيرة، رأى أوغسطين كيف كانت الظلال تطارد ذاكرته بشكل مكثف كما لو كانت تعده للولادة في العالم. ملأ الكثير من الرؤوس الطائرة السماء، وارتعشت بين السحب الداكنة. ضغطت الأذرع على الساقين، وسقطت الألسنة، ورقصت الأسنان، والتفتت الشفاه المستقيمة. ما مر برأسه، وما حرك جلده العاري، وما هب في قلبه، وما ملأ بصره، كل ذلك ظل مجهولاً. كل هذا أذهله. لم يسمع شيئًا عن هذه الاهتزازات الجوفية. تخيل الحدبة الصغير الرماح والسكاكين والفؤوس تدور بسرعة في السماء، وتسقط على كلمته التي هربت بسرعة، وأطلقت أنينًا، هذه كلمة البؤساء. ثم حملت الأيدي والذراعان والأصابع الأسلحة لتطلب ظله الذي تلاشى مرة أخرى.

وصل ثعبان عملاق بهدوء ليعضه في رقبته. كان الاستيقاظ فوريًا.

- ماذا ستفعل في الخارج؟ ألقى عليه ويني الذي كان واقفًا هناك، إلى جانبه، وهو يفحص السقف. حكم الشيطان لا نهاية له هناك. ليس لديك مكان تذهب إليه.

- أمي تنتظرني.

- لم تعد طفلاً. أنت موصوم مدى الحياة. يجب أن تموت أمك فيك. لم تعد والدتك هي والدتك، وأنت لم تعد طفلاً يحتاج إلى أم.

شعر أوغسطين بألم في قلبه، وأراد أن يقول شيئًا سيئًا لويني، لكنه وجد أن ثني شفتيه يعني ارتباكه. قال بعصبية: "كل رجل يحمل عبئًا غير مرئي!" على الرغم من أن هذا يبدو شريرًا، إلا أنه شعر بفرحة غريبة تغمره. أراد أن يستدعي الذكرى للنجدة. لكن ذلك كان مستحيلاً. ستحرره أبواب النسيان قريبًا. لقد أحزن ذلك الشاعر الذي قال إن هذا الانفصال سيقتله.

كان الرفاق الآخرون سعداء من أجله. كان الطفل هو الشخص الوحيد الذي تمكن من مغادرة هذا المكان. لكنهم أرادوا ألا يعرف أحد شيئًا عنهم، وأن يحفظ أسرار هذه الهاوية، وأن يقول للآخرين أنه كان مسجونًا في مكان مريح، وأنه لم يكن يعيش في ظلام لا يمكن سبر غوره، وأنه كان يتغذى ويعتنى به. ومتعلم ومشاهد من قبل الطبيب والطبيب النفسي. كان سعيدًا جدًا، وإذا سأله الناس عن زملائه في السجن، فسيخبرهم أنهم ليسوا رجالًا من لحم ودم، مجرد ظلال. أشباح بعيدة. أنهم لم يعودوا موجودين. كان النسيان هو الأرض الصالحة الوحيدة لسباقاتهم.

كانت الكلمة الأخيرة لإيهود:

- إذا سألك الناس عنا، أخبرهم أننا متنا منذ فترة طويلة.
- موتى؟ لماذا ا؟
- يا بني، صرخ عليه إيهود، لا يتعرف علينا إلا بعد نهايتنا. اصمت! لا تقل شيئًا عنا!

في تقديرٍ، أمام هذا الطفل الذي أومأ برأسه علامة على الموافقة، قدموا له ملكًا من الذهب: كانت هذه البطاقة تمثل كل شيء للاعبين، وهي علامة على النصر. ستنقذه. سيكون الحظ دائمًا في صفه. من الآن فصاعدًا، سيلعبون بدون هذه البطاقة، ويفكرون في حامل البطاقة السحرية.

أي حظ، ماذا سيفعل به؟ على وجه التحديد، لم يكن أوغسطين يريد أن يموت. يجب أن ينسى والدته ولا يبكي عليها. كان شقاؤه إذا التصق بتنانيرها. خسارته. كان يرى نفسه يتيمًا بالفعل. آه، الرجال، شيء يخص القدر، يصطفون للحظ السيئ واحدًا تلو الآخر، من الأب إلى الابن! آه، كان يجب أن يرحل بعيدًا. هو أيضًا، كان عليه أن يمر كظل، كشبح، وأن يدفن نفسه حيث يمكن للعار والنسيان أن يستقبله.

- حتى لو خرجت من السجن، فلا يمكنك تحرير نفسك. قال له الشاعر وهو يضع في كفيه تقويمًا: السجن يلتصق بجلدك. اعتبر نفسك من الآن فصاعدًا غريقًا يمكنه البقاء على قيد الحياة بفضل الآيات التي أقدمها لك هنا.

كان الشاعر يمسك بيده. حتى اللحظة الأخيرة كان يقرأ عليه قصائد أخرى لأن الطفل كان سينهي إقامته في أي لحظة، وستكون الوحدة للفنان.

- أوغسطين، لن تتجاوز محنة الأضواء. هناك الكثير من الحرائق التي تلتهم وتلتهم الحياة. اعرف كيف تدافع عن نفسك يا صغير! اعرف كيف تنطلق نحو الحياة، ولهذا يجب أن تكون قويًا! يمكن للقوة وحدها أن تنقذ حياتك، وتحتاج إلى الكثير من القوة. اعلم أيضًا أن الرجال لم يقولوا شيئًا أمام الشر. لقد عاشوا أو تظاهروا بالتمسك بالحياة. ستحررك آياتي، صدقني! إذا تليتها على الجماهير، سيكون هناك من سيؤمنون بك، وسيتبعونك في كل مكان.

- أنا ضعيف، ما زلت مع حدبتي.

أصيب الشاعر بالتهاب في الحلق عند سماعه لهذه السخافات. كان الوهم ثابتًا في عينه المفكرة. قال له مرة أخرى:

- اتبع الحبل، ستصل إلى الحقيقة.

هذه استعارة جميلة لما كانت عليه الحياة، كما يعتقد أوغسطين.

- كيف سأفعل؟ هل أعرج على اليمين؟ هل أعرج على اليسار؟ هل أذل نفسي بالكامل؟ دع النور والظل يتشابكان عن كثب ليرشداني بعيدًا عن هذه الجبال الفخورة والباردة! دع الحياة تخفف خطوتي!

طالب كل شيء في رأسه بمعنى. لم يكن يعرف ماذا يفعل. ماذا يجب تفسيره؟ الصمت؟ ماذا سيصبح الآن؟ مغامرة لا نهاية لها، يجب أن تبدأ جيدًا.

على عتبة السجن حيث كان حشد ينتظر بفارغ الصبر خروج الرفاق، رأى أوغسطين جنودًا يصلون على عجل: لقد دفعوا رجلًا ذو لحية كثيفة إلى الأمام، وعيناه مختنقتان بعصابة. رفع السجين يديه المرتجفتين عالياً، وصلى إلى السماء المنطفئة. كان يتلو ترانيم، وقدمها بحماس إلى السماء الصامتة. لم يمل من تفتيش أجواء السماء، على أمل قراءة بعض المعجزات هناك.

في ذلك الصباح، ولأول مرة في حياته، قدر أوغسطين هذا الشعور الثقيل الذي احتفظ به في قلبه، وربما القلق، ثم أدرك أنه رجل جديد. يمكنه أن يبحث عن طريقه هناك.

حرا! تحرير! ماذا سيفعل في الخارج؟ أين كانت الأم في هذه اللحظة؟ لا، لم يعد بإمكانه التمسك بها. من يستطيع أن يتحمل نظرة أم يائسة؟ ربما كان نحسها.

قرر أوغسطين أن يسلك طريق جهنم في هيبون. من جانبه، انطلق هذه المرة لاكتشاف مدينة الرجال القساة والمتغطرسين. لم يعد يشعر بأن الحدبة تثقل ظهره. لم يكن يحمل عبئًا.

على الطريق المعبدة، رأى هذه المرة إغراء متابعة، ما دفعه إلى السير على الأرض الصلبة. حطم هذا الطريق جميع الأرقام القياسية: كانت هناك دائمًا جثث الكلاب الضالة التي سحقها السائقون المتلهفون للهروب من الجبال.

في السماء العالية، انفجر وهم مفاجئ في ومضات مختلفة. من بين هذه الأجواء المضطربة، مزق نسر أزرق اللون، ونثر صرخات حادة ونشاز. لم يكن يعرف بعد في أي اتجاه سيبدأ

حجّه. هرب مثل البرق، وبأجنحة مذعورة كهذه سعى إلى شيء لا يعرف ما هو عظيم وممتع.

في كل مكان حوله، أقسم على توسيع نظرته البانورامية. كانت العديد من الأفكار الغامضة تدور أمامه. سحقت العقائد والرموز روحه؛ لذلك وجدت الفكرة نفسها مقيدة بشباك غير مرئية. لقد أنجبوا أسرارًا غير مجدية. لم يستطع التحدث. لم يحدث شيء. عندما تفشل الكلمات، فإن الوجه هو الذي يعبر عن نفسه: كان يبدو منطفئًا. كان الجرح عميقًا لدرجة أنه تمكن من رؤية الحياة بكل أشكالها.

عند الانحناء، رأى الطفل أن حذاءه كان غير مربوط؛ لم يركع. لم يكن خائفًا من السقوط، فلن تكون الأربطة سبب سقوطه. أقسم أن يرتفع عاليًا في السماء.

توقفت **سيارة** على بعد خطوات من أوغسطين، وكان المحرك لا يزال يعمل. كان السائق يحمل سيجارًا في يده اليمنى، وأشار إلى الطفل بالصعود. في الداخل، عزف جهاز الراديو لحنًا غريبًا: "دعوا الأطفال الصغار يأتون إليّ؛ ملكوت السماوات لمن يشبههم ..." هل كان من الضروري أن يكون هناك عزاء في الأغنية؟ لا. لا شيء. كل شيء ضاع في النهاية.

كان الهواء الموسيقي حيويًا وجافًا. كانت الأصوات تصنع السلام في رأس متعب ولين على لسان جاف وذهول لقلب كان يبدع أكثر في الحلم منه للنبض بالحياة. ذكره ذلك بنهاية قصيدته الحزينة، كانت كلمات الشاعر حية في ذهنه.

إذا صر الباب، فهذا سيعلن له عن محنة وشيكة. أغلقها أوغسطين بضربة خجولة وخفيفة. الآن، يجب أن تكون هيبون في نهاية الطريق، على بعد دقائق من السباق. رأى كيف كان السائق يصفر بخفة بين شفتيه نغمات كئيبة.

ما زال خائفًا. فقد انكمش أوغسطين على المقعد، وهو يمسك التقويم بعصبية، وتذكر عبارة لهذا النبي المستهجن الذي قال له:

من يقرر العيش من أجل الحب، لا يحيي وجوده فحسب، بل يفتدي نفسه في سعادة الآخرين.

استعاد الطفل القوة لبدء الحياة، وشعر بالسماء تناديه. استدار ليلقي نظرة باهتة على الجبل العالي الذي كان يقع بثقل عند الأفق.

الفهرس

- ابن السماوات..... 1
- "استيقاظ أوغسطين" 2
- سفر أوغسطين إلى تاغاست من أجل طحن الحبوب 12
- لقاء أحد المقاومين القدامى الذي طلب منه الذهاب لرؤية ابنته في القرية..... 19
- حين وصوله إلى منزل الطحان بالقرية..... 25
- بيع القمح للجنود وسجنه..... 33
- المثول أمام القائد 38
- رحلة الأم إلى القرية ولقاء الرجل العجوز 43
- لقاء إسماعيل وزيارتها للإدارة..... 49
- من حكم أوغسطين 53
- وحدة أوغسطين التنبيئية داخل السجن 61
- تحرير أوغسطين..... 74

Le fils des cieux

ابن السماوات

لك أن تتخيل راعيًا وسط وحوش آدمية. كان يومًا ما موضوعا لتجربة القوة والشر، ووقع في شراك الجور. لنقل إن هذه القصة ليست حكاية، ولا قصة رمزية، هي بالأحرى قصة ولادة. يولد الطفل الأحدب وسط الألم، يعتاد على الظلم، ويجد نفسه أسيرًا لشرور تافهة. يُصبح يومُ البعث، بالنسبة له، بعيدا جدا. من أجل طحن القمح المتصدق به عليه، يجب على هذا الطفل أداء "فريضة الحج". الطريق طويل، وربما لا نهاية له، وفي الأخير لن يكون هناك خبز لهذه الأفواه الجائعة

دعونا نكتفي بعبارة بسيطة: الطفل المذنب موجود وها هي سلوكاته الجُرمية المُدينة له

ISBN : 978-2-343-18992-5